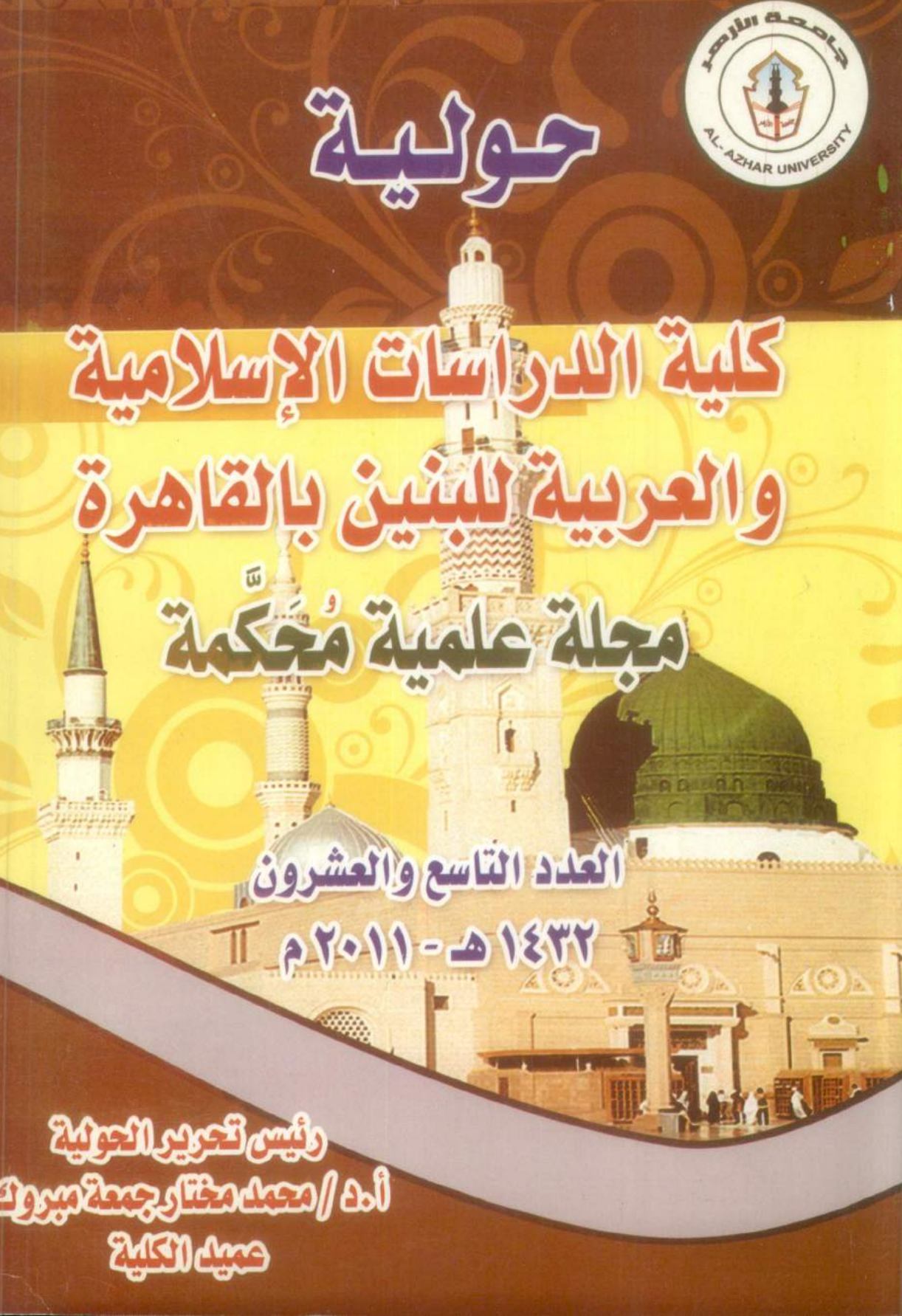

جامعة الأزهر
AL- AZHAR UNIVERSITY

حولية

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

مجلة علمية مُحَكَّمة

العدد التاسع والعشرون

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رئيس تحرير الحولية

أ.د / محمد مختار جمعة مبروك

عميد الكلية

حوليـــــة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

مجلة علمية محكمة

العدد التاسع والعشرون

الجـــزء الـــرابع

رئيس تحرير الحولية

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

عميد الكلية

١٤٣٢-٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

" وقـــل رب زدنـــى علمـــا "

سورة طه : جزء من الآية ١١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة رئيس التحرير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه .

وبعد :

فبعد ثورات الربيع العربى وبزوغ شمس الحرية ، وبعد أن خطت الأمة فى مجال الإصلاح السياسى خطوات جيدة – فإننا فى حاجة إلى بذل أقصى الجهد فى مجال العلم والمعرفة ، فالبحث العلمى الجاد يعد من أهم عوامل النهضة والرقى لأى أمة تريد أن تكون فى مصاف الأمم المتقدمة .

وإن قراءة تراثنا الحضارى الإسلامى واللغوى قراءة واعية تشكل منطلقا قويا لنهضة فكرية وعلمية إسلامية وعربية فى رؤية عميقة تأخذ من ماضيها ما تبنى عليه حاضرها وتنطلق به فى مستقبلها ، تنبثق من عمق التراث ، ولا تنكفئ على الذات أو تنعزل عن الحاضر أو تتخلف عنه ، بل تنظر بعين الاعتبار إلى العلوم والدراسات الحديثة والعصرية ، فتأخذ منها النافع والمفيد ، لتثمر فى النهاية شيئا جديدا يتناسب وروح العصر الذى نعيشه ، ويشكل أهم ملامح خصوصيتنا الحضارية ، ويكون هويتنا الواقية فى زمن العولمة والتيارات الفكرية والثقافية الوافدة الجارفة .

وإنى لأوكد أن فى تراثنا العربى الإسلامى – علميا وفكريا وثقافيا – من الثراء والتنوع مايدعو بقوة إلى إعادة قراءته قراءة متأنية تنقحه وتمحصه ، وتنفض عنه ما علق به من غبار الزمن ، وتبرز أهم ملامحه من الشمول والوسطية والتيسير ، إذ لا تعرف ثقافة من الثقافات من هذه المعانى ما عرفته الثقافة الإسلامية .

كما أننا فى حاجة – أيضا – إلى قراءة واقعنا المعاصر قراءة واعية ، ودراسة قضاياه دراسة جادة ، تعمل على حل مشكلاته ، وتواكب مستجداته وتطوراته ، وتسهم فى نهضة الأمة ورقيها .

وفى هذا العدد التاسع والعشرين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة نقدم للأمة وللدارسين والباحثين فى مجال العلوم الشرعية والعربية مجموعة متميزة من البحوث العلمية المحكمة لنخبة متميزة من أعضاء هيئة التدريس بالكلية وبعض الباحثين من خارجها إيمانا منا بقيمة التواصل العلمى وأن العلم رحم بين أهله ، وذلك فى ضوء رسالة الأزهر وريادته العلمية .

فقد كان الأزهر الشريف – وسيظل – حصنا حصينا للإسلام واللغة العربية ، حاملا للرسالة ، مؤديا للأمانة ، فى ضوء وسطية الإسلام واتساع أفقه العلمى والفكرى والثقافى .

وما هذه المجلة التى تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة إلا قطرة من فيض بحره العلمى الزاخر .

ولله در شوقى إذ يقول فى الأزهر ورجاله :

قم فى فم الدنيا وحىّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأعظم مفخرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرا

وهاشم الرفاعى حيث يقول :

كانوا لمن ظلموا حصون عدالة ... كانوا الشكيم لمن طغى وتجبرا
ما قامروا بالدين فى سبل الهوى ... كلا ولا اتخذوا الشريعة متجرا
عاشوا أئمة دينهم وحماته ... لايسمحون بأن يباع ويشترى
ثم انطوت تلك الشموس وإنها ... لأشد إيمانا وأطهر منزرا

وحيث يقول :

فمعقل إرشاد ومنبع حكمة ... وبحر علوم ليس يدرك آخره
تدفق منه النور كالصبح مشرقا ... ورف رفيف الروض يختال ناضره
وبات على هدى الشريعة حارسا ... فما هو إلا قائم الليل ساهره
وكان شجا فى حلق كل مضلل ... إلى أن نأى عن ساحة الدين تاجره
حذار من الليث الكريم فإنه ... ليوشك أن ينأى عن الحلم صابره
فمهما أعدت حوله من مزالق ... ستعبرها راياته وشعائره
وليس يمارى فى عظيم جهاده ... مدى الدهر إلا جاحد الفضل كافره
وإن تزمه بالضر يوما يدى امرئ ... فذلك بيت الله والله قاهره

هذا والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

عميد الكلية ورئيس التحرير

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

هيئة تحرير الحولية

رئيس التحرير

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

عميد الكلية

أعضاء أسرة التحرير

١- الأستاذ الدكتور/ المحمدى عبد الرحمن عبد الله

وكيل الكلية

٢- الأستاذ الدكتور/ زهران محمد جبر

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

٣- الأستاذ الدكتور/ عباس عبد اللاه عباس

رئيس قسم الشريعة الإسلامية

٤- الأستاذ الدكتور/ محمد محمد زناتى عبد الرحمن

الأستاذ المتفرغ بقسم أصول الدين

سكرتير التحرير

أ / عادل مدبولى أمين

الأساتذة أعضاء لجان تحكيم المجلة (العدد التاسع والعشرين)

أولا : قسم أصول الدين

تخصص التفسير وعلوم القرآن

١	أ.د/ المحمدى عبد الرحمن عبد الله	أستاذ التفسير وعلوم القرآن ووكيل الكلية
٢	أ.د/ محمد محمد زناتى عبد الرحمن	أستاذ التفسير وعلوم القرآن المتفرغ
٣	أ.د/ أبو سريع محمد أبو سريع	أستاذ التفسير وعلوم القرآن المتفرغ
٤	أ.د/ على حسن محمد سليمان	أستاذ التفسير وعلوم القرآن

تخصص الحديث وعلومه

١	أ.د/ إبراهيم إسماعيل قنديل	أستاذ الحديث وعلومه غير المتفرغ
٢	أ.د/ محمد رياض سيد أحمد	أستاذ الحديث وعلومه المتفرغ
٣	أ.د/ محروس حسين عبد الجواد	أستاذ الحديث وعلومه المتفرغ

تخصص العقيدة والفلسفة

١	أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز	أستاذ العقيدة والفلسفة غير المتفرغ
٢	أ.د/ إبراهيم عبد الشافي إبراهيم	أستاذ العقيدة والفلسفة

ثانيا : قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص اللغويات

١	أ.د/ فايز زكي محمد دياب	أستاذ اللغويات المتفرغ
٢	أ.د/ محمد محمد سعيد	أستاذ اللغويات المتفرغ
٣	أ.د/ محمد المختار محمد المهدى	أستاذ اللغويات غير المتفرغ
٤	أ.د/ فهمى حسن النمر	أستاذ اللغويات المتفرغ

تخصص البلاغة والنقد

١	أ.د/ فوزى السيد عبد ربه	أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ
٢	أ.د/ فريد بدوى النكلاوى	أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ
٣	أ.د/ فتحى فريد عبد القادر	أستاذ البلاغة والنقد عضو لجنة
٤	أ.د/ إبراهيم صلاح السيد سليمان الهدهد	أستاذ البلاغة والنقد عضو محكم

تخصص الأدب والنقد

١	أ.د/ زهران محمد جبر	أستاذ الأدب والنقد
٢	أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض	أستاذ الأدب والنقد المتفرغ
٣	أ.د/ على على صبح	أستاذ الأدب والنقد غير المتفرغ

تخصص أصول اللغة

١	أ.د/ إبراهيم محمد عبد الحميد أبو سكين	أستاذ أصول اللغة المتفرغ
٢	أ.د/ عبد الحليم محمد عبد الحليم	أستاذ أصول اللغة غير المتفرغ

إيضاح

١- حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة هى مجلة علمية محكمة تصدر مرة كل عام.

٢- تعنى الحولية بنشر البحوث العلمية التى تتميز بالأصالة والجدة فى مجال الدراسات الإسلامية والعربية.

٣- تخضع البحوث العلمية المقدمة للنشر بها للتحكيم العلمى السرى من قبل اثنين من الأساتذة المتخصصين فى مجال البحث المقدم .

٤- الدراسات والمقالات المنشورة فى هذه الحولية تعبر عن آراء وأفكار أصحابها ، وهى على مسئوليتهم الكاملة ، ولا تمثل - بالضرورة - رأى الحولية أو اتجاهها .

٥- ترتيب الموضوعات فى الحولية يخضع لأمور فنية لا علاقة لها بأهمية البحث أو مكانة البحث .

قسم اللغة العربية

من آى الذكر الحكيم فى الضر والنفع

دراسة بلاغية

إعـــداد

د. على عبد الرحمن حسين

مدرس فى قسم البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله المتفرد بالألوهية والوحدانية والربوبية « الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » [الأنعام : ١]، والصلاة والسلام على من محق الله به الشر وزهق به الباطل سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه واتباعه بإحسان إلى يوم الدين فقد أرسله ربه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبعد ...

فالقرآن كلام الله الذى تحدى به الإنس والجن قاطبة وبهت أمام إعجازه أساطين الفصاحة وأرباب البيان ، وأمام هذا الإعجاز تبارت الاقلام واتجهت الهمم العالية إلى محاولة الوقوف على أسرار إعجازه منذ أن خط حوله أول قلم وإلى الآن ، وعلى الرغم من كثرة ما دار حول القرآن من مؤلفات إلا أنه لم يصل العلماء إلى الكلمة الأخيرة حول مراد الله تعالى بما ذكر فى القرآن فهو مازال فى حاجة إلى جهود أهل العلم للكشف عن أسرار إعجازه البلاغى مما دفعنى إلى محاولة الوقوف على الأسرار البلاغية فى آيات الضر والنفع .

ومن خلال تتبعى لآيات الضر والنفع فى القرآن وجدت أنها قد تنوعت إلى ما يأتى :١ــ آيات ذكر فيها النفع فقط . ٢ــ آيات ذكر فيها الضر فقط .

٣ــ آيات انفردت بذكر الضر والنفع معاً .

وكانت الرغبة ملحة فى الوقوف على هذه الأنواع إلا أننى لاحظت أن هذه الدراسة ستمتد وتطول فآثرت الوقوف على النوع الثالث ، ووضعت له عنواناً .

من آى الذكر الحكيم فى الضر والنفع دراسة بلاغية للأسباب الآتية :

❁ أن هذه الآيات ورد فيها آية السحر وقد اشيع لدى الكثير من الناس أن الساحر هو القادر على ايصال الضر بالمسحور بنفسه ، وأنه أيضاً القادر على دفعه عنه بنفسه فتناولت هذه الآية بالدراسة فى مقام بيان القرآن عن جريمة من جرائم اليهود بالإضافة إلى أن الضر والنفع قد جاء فى مقام الرد أيضاً على النصارى الذين اتخذوا المسيح إلهاً وكذا أهل الشرك الذين اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله تعالى منذ أبينا ابراهيم ــ عليه السلام ــ وإلى عهد سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلى الآن .

❁ ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الكثير ممن أنعم الله عليهم بالمناصب الدنيوية يسندون إلى أنفسهم القدرة على ملك النفع والضر فتبين هذه الدراسة أن رسول — صلى الله عليه وسلم — قد نفى عن نفسه ملك النفع والضر لها وبذلك يكون نفى هذا عن غيره أولى .

وأما المنهج الذى سلكته فى هذا البحث فهو المنهج التحليلى المعتمد على الوقوف على السياق والمقام فى كل آية ، ثم الوقوف على ما فى الآية من أسرار بلاغية متتبعاً الجزئيات لكل ما ورد فى الآية دون أدنى تقصير مستعيناً فى ذلك بالعديد من المصادر والمراجع وثيقة الصلة بمثل هذه البحوث كجامع البيان للطبرى والكشاف للزمخشرى ومفاتيح الغيب للرازى ... إلخ ماهو موجود فى فهرست المصادر والمراجع .

وأما فيما يتعلق بخطة البحث فقد رأيت أن يقسم هذا البحث حسب الآيات الواردة فى المصحف الشريف حسب المقامات على النحو التالى :

❁ بيان القرآن عن جريمة من جرائم اليهود .

❁ الرد على النصارى بيان فساد عقيدتهم .

❁ شدة تمسك أهل الباطل به .

❁ استئثار الله بعلم الغيب .

❁ نفى الشفاعة عن الأصنام .

❁ انتفاء الألوهية عن الأصنام .

❁ عظم الشرك .

❁ تفرد الله تعالى بالوحدانية والربوبية .

❁ إقامة سيدنا إبراهيم الحجة على قومه .❁ ربط الإيمان بالمكاسب الدنيوية .

❁ بيان القرآن عن مشهد من مشاهد يوم القيامة . ❁ كشف كذب المنافقين وحيلهم.

ثم اتبعت هذا البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج ثم فهرست لأهم المصادر والمراجع ثم فهرست للموضوعات .

ولم أدخر وسعاً فى الوصول بالبحث إلى الغاية المرجوة من ورائه وهى ابراز الخصائص البلاغية لهذه الآيات الوارد فيها الضر والنفع ومدى ارتباط الضر والنفع بالسياق القرآنى فقد جاء الضر والنفع مرتبطاً أشد الارتباط بالغرض من الطاعة أو المعصية والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباحث ،،

بيان القرآن عن جريمه من جرائم اليهود

عدد القرآن جرائم اليهود فى مواضع عديده ، وساق لنا جريمة من تلك الجرائم التى لاتصدر إلا عن أمثالهم ، وهى تمسكهم بالسحر علماً وعملاً وتعليماً حيث يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

بين القرآن فى الآية التى قبل هذه إصرار اليهود على التمسك بالباطل والاعراض عن الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] واتبعه فى الآية التى نحن بصددها ببيان اتباعهم السحر فقال ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ .

فالواو فى « واتبعوا » للعطف ، واختلف فى المعطوف عليه ، فهو إما ما جاء فى قوله تعالى « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » حيث يقول الزمخشرى «أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين يعنى واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها على ملك سليمان »[3] .

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

(٢) البقرة : ١٠١ .

(٣) الكشاف : ١/ ٣٠١ وانظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٢/ ٣٤٦ .

وبناء على هذا يكون المسند إليه فى « واتبعوا اليهود الذين كانوا قبل مبعثه » صلى الله عليه وسلم حيث نبذوا كتاب الله التوراة واتبعوا كتب السحر .

وإما أن يكون المعطوف عليه جملة الشرط وجوابها فى قوله تعالى « ولما جاءهم رسول ... » حيث يقول أبو حيان فى هذا : « والجملة من قوله « واتبعوا » معطوف على جميع الجملة السابقة من قوله « وما جاءهم رسول من عند الله ... » الخ ، وهذا إخبار عن حالهم فى اتباعهم مالا ينبغى أن يتبع ؛ لأن الاتباع ليس مترتباً على مجئ الرسول ؛ لأنهم كانوا متبعين ذلك قبل مجئ الرسول بخلاف نبذ كتاب الله فإنه مترتب على مجئ الرسول»[1]

وبناء على هذا يكون المسند إليه اليهود الذين كانوا وقت بعثته « صلى الله عليه وسلم» وقد كانوا على علم بوقت بعثته ولما بعث لم يؤمنوا به ولم يتبعه إلا البعض ، وتركوا المبشرات التى بشرت به فى التوراة واتبعوا كتب السحر .

ولعل ما تميل إليه النفس أن المسند إليه عام فى كل اليهود سواء كانوا فى عهد سيدنا سليمان « عليه السلام » أو بعده أو قبل سيدنا محمد أو وقت بعثته أو بعد ذلك إلى يوم القيامة ؛ لأن طبعهم فى تكذيب الأنبياء والرسل والاعتداء عليهم بالقتل واتباعهم الباطل والسحر والعمل به وسفك الدماء والعمل على نشر الفساد فى الأرض واحد ، وهذا ما رجحه الرازى فبعد ما ساق الآراء رجح الدلالة على العموم فقال : « قوله تعالى : واتبعوا » حكاية عمن تقدم ذكره وهم اليهود ثم فيه أقوال : أحدها : أنهم اليهود الذين كانوا فى زمن محمد «عليه الصلاة والسلام » ، وثانيها : أنهم الذين تقدموا من اليهود ، وثالثها : أنهم الذين كانوا فى زمن سليمان « عليه السلام » ويعدونه من جملة الملوك فى الدنيا ، فالذين كانوا فى زمانه لا يمنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر ،

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ١/ ٣٢٥ ، حاشية الشهاب ٢/ ٣٤٦ .

ورابعها : أنه يتناول الكل وهذا أولى ؛ لأنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى غيره إذ لا دليل على التخصيص » [١] .

وعبر القرآن عن المسند إليه بضمير الغائب ، تحقيراً لهم ، لأن شأن المتمسك بمثل هذا لا يكون إلا حقيراً والاتباع كما وقال الراغب : « يقال تبعه واتبعه قفا أثره وذلك تارة تارة بالارتسام والائتمار وعلى ذلك قوله « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » « واتبعوا ما تتلوا الشياطين » [٢] وأيضاً جاء فى لسان العرب « واتبع القرآن ائتم به وعمل بما فيه»[٣] .

ووقع الاتباع المسند إلى هؤلاء على (ما) فى قوله : « ماتتلوا الشياطين » ، ولعل السر فى التعبير بالاسم الموصول وصلته الدلالة على اتباعهم لشئ حقير وجرم عظيم لا يجوز اتباعه وهو ما تلته الشياطين ، ومع أن المقصود به السحر إلا أن القرآن لم يقل « واتبعوا السحر » وذلك للدلالة على أنهم قد اتبعوا السحر وغيره من كل فعل قبيح يصدر عن الشياطين ؛ لأن الشياطين لا يصدر عنهم إلا كل ما هو مذموم وقبيح . ولذا أسندت التلاوة إلى الشياطين . وحذف مفعول « تتلو » وهو السحر نظراً لقبحه وحقارته ، يقول أبو حيان : «وفسروا ما يتلوا الشياطين بالسحر قالوا وهو الأشهر والأظهر على ماتقل فى أسباب النزول من أن الشياطين كتبت السحر واختلقته ونسبته إلى سليمان وآصف ، وقيل الذى تلته هو الكذب الذى تضيفه إلى ما تسترق من أخبار السماء وأضافوا ذلك إلى سليمان تفخيماً لشأن مايتلونه ؛ لأن الذى كان معه من المعجزات ، واظهار الخوارق وتسخير الجن والإنس وتقريب المتباعد ، وتأليف الخواطر وتكليم العجماوات

---

(١) مفاتيح الغيب ٣/ ٢٢١ وانظر روح المعانى للألوسى ١/ ٥٣٢ .

(٢) المفردات للراغب (تبع) ص / ٩٥ .

(٣) لسان العرب ١/ ٤١٧ (تبع) .

كان أمراً عظيماً ، والساحر يدعى أشياء من هذا النوع من تسخير الجن وبلوغ الآمال والتأثير فى الخواطر بل ويدعى قلب الأعيان»[١] .

والتعبير عن صلة (ما) بالمضارع فى قوله تعالى « تتلوا » مخالف لمقتضى الظاهر ؛ لأنهم قد اتبعوا ماتلت وليس ما تتلوا ، ولعل السر فى هذا « أن يقدر الفعل الماضى المستغرب واقعاً فى الحال ليتعجب المخاطب منه وإلا فالمقام يقتضى ماتلت » [٢] أو أن ذلك « إشارة إلى كثرته وفشوه » [٣] ، وعبر القرآن عن اتباعهم كتب السحر بالفعل « تتلوا » ولعل السر فى هذا هو أنه إما من التلاوة وهى القراءة والدراسة كما تقول : فلان يتلو القرآن بمعنى يقرؤه ويدرسه ، كما فى قوله تعالى « يتلونه حق تلاوته » [٤] . وإما من التلو وهو التبع كما فى قوله تعالى «والقمر إذا تلاها » [٥] وكما فى قولهم «تلوت فلاناً » إذا مشيت خلفه وتبعت أثره » [٦] .

واستعمال التلاوة فى الاتباع بناءً على ما زعمته الشياطين أن ما يتلونه من كتب الله أى أنه حق وصدق ، يقول الراغب : « والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب أو مايتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة فكل تلاوة قراءة وليس كل

---

(١) البحر المحيط ١/ ٣٢٦ .

(٢) حاشية شيخ زاده ١/ ٣٦٧ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ٧٢ .

(٤) البقرة : ١٢١ .

(٥) الشمس : ٢ .

(٦) انظر جامع البيان ١/ ٤٩٢ ، وروح المعانى ١/ ٥٣٢ ، وحاشية زاده ١/ ٣٦٦ .

قراءة تلاوة ... واستعمل فيه لفظ التلاوة لما كان يزعم الشيطان أن ما يتلونه من كتب الله » [١] .

والجار والمجرور فى قوله تعالى « على ملك سليمان » متعلق بالفعل « تتلوا » وذكر أن (على) هنا جاءت بمعنى (فى) أى أن ما دونوه وتلوه فى زمان ملكه [٢] . ويذكر البقاعى أن التعبير بـ (على) فيه إشارة إلى أن السحر فى هذا الزمان كان ظاهراً عالياً ، وأن الأحسن أن يضمن الفعل (تتلوا) معنى تكذب فقال : « وكأن السحر كان فى تلك الأيام ظاهراً عالياً على ما يفهمه التعبير بـ (على) وأحسن من هذا أن يضمن (تتلوا) تكذب فيكون التقدير : تتلوا كذباً على ملكه » [٣]

فذكر المتعلق وهو الجار والمجرور ، لبيان أن ما تلته الشياطين ليس صدقاً ، وأن ذلك كان فى زمن نبى الله سليمان .

ثم ينفى القرآن الكفر عن نبى الله سليمان « عليه السلام » فى قوله « وما كفر سليمان » وفى هذا دلالة على أن هناك اتهاماً له بالسحر ، وهذا الاتهام اما من جهه الشياطين كما ذكر الزمخشرى حيث قال : « ما كفر سليمان » تكذيب للشياطين ، ودفع لما اتهمت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به » [٤] ، وإما من جهة السحرة من اليهود روى « أن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فنزهه الله تعالى منه » [٥] ، وإما من جهه بعض أحبار اليهود فقد « روى أن بعض أحبار اليهود أنهم قالوا : ألا تعجبون من محمد يزعم أن

---

(١) المفردات للراغب (تلى) / ٩٩ ــ ١٠٠ .

(٢) انظر روح المعانى ١/ ٥٣٢ ــ ٥٣٣ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ١٤ .

(٤) الكشاف ١/ ٣٠١ وانظر تفسير البيضاوى بحاشية زاده ١/ ٣٦٧ .

(٥) مفاتيح الغيب ٣/ ٢٢٢ .

سليمان كان نبياً وما كان إلا ساحرا » [١]. ومع أن المراد بالكفر هنا السحر إلا أن القرآن لم يقل « وما سحر سليمان » وإنما قال «وما كفر سليمان » حيث « عبر عن السحر بالكفر ؛ لأن مباشرة بعض أنواعه كفر . وإن كان المراد بالشياطين أتباعهم من الإنس فكفرهم بمباشرة السحر واستعماله ظاهر ؛ لأن اعتقاد السحر ديناً ونسبة ذلك إلى نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كفر .

وإن كان المراد بالشياطين الحقيقة ، فإنهم وإن كانوا كفاراً قبل مباشرته وتعليمه ونسبته إلى سليمان فقد أحدثوا بذلك كفراً مع كفرهم أى زادت فى حقهم أسباب الكفر فى المستقبل فإن كل واحد من هذه الأسباب موجب للكفر ، فمن كفر بشئ من أسباب الكفر ثم تحقق فيه سبب آخر فإن كفره يضاف فى المستقبل إلى مجموع السببين ،وإن كان قبل تحققه مضافاً إلى السبب السابق » [٢] .

ونفى الكفر عن نبى الله سليمان يدل على اثباته لغيره ، ولذلك قال « ولكنَّ الشياطين كفروا » ، يقول الرازى : « ثم بين أن الذى برأه منه لاصق بغيره فقال « ولكنَّ الشياطين كفروا» يشير إلى ما تقدم ذكره ممن اتخذ السحر كالحرفة لنفسه وينسبه إلى سليمان » [٣] .

وإسناد الكفر إلى الشياطين قد جاء مؤكداً بالعديد من المؤكدات التى لا تخفى على أى ناظر ، منها (لكنْ) الداخله على الجملة الاسمية ، ومنها تقديم المسند إليه على خبره الفعلى والذى أفاد القصر ، وجملة القصر كما هو معلوم بمنزلة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية .

ولعل السر فى التوكيد بهذه المؤكدات هو دفع التهمة عن سيدنا سليمان وأن القائم بهذا هم الشياطين التى تسعى للغواية والإفساد فى الأرض وأنه يمكن

---

(١) مفاتيح الغيب ٣/ ٢٢٢ وانظر روح المعانى ١/ ٥٣٣ والبحر المحيط ١/ ٣٢٦ .

(٢) حاشيه زاده ١/ ٣٦٧ .

(٣) مفاتيح الغيب ٣/ ٢٢٢ .

أن يختلط الأمر على الكثير من الناس بأنه لا فرق بين ما كان يصدر عن سيدنا سليمان من تسخير الجن له وبين ما يصدر عن السحرة من تسخير الجن أيضاً والناظر المدقق يتبين له أن سيدنا سليمان كان يسخر الجن بأمر الله فى الخير ويعد هذا من المعجزات ، وأما تسخير غيره فليس بأمر مجوز فيه ذلك ، وليس فى الخير إنما هو فى إيذاء الناس والتسلط عليهم وتمزيق آصرة الود التى بينهم (١).

ويعد قوله تعالى « يعلمون الناس السحر » بياناً لقوله تعالى « ولكن الشياطين كفروا »(٢) إذن ليس الغرض من تعليم الشياطين الإنس السحر هو اتقاء شر السحر ، أو محاولة القضاء عليه حتى لا ينتشر ويعم ، وإنما الغرض كما قال الزمخشرى هو الإغواء والاضلال (٣) فالتعليم هنا لم يقع على أمر نافع ، والمعلم والمتعلم ليس غرضهما من التعليم هو النفع والخير ، لأن المعلم هم الشياطين والمتعلم أتباعهم من الإنس وبينهما علاقة وطيدة تنحصر فى إذاعة الشرور وافشائها وإيذاء الناس بها ... يقول الشهاب « قوله (اغواءً واضلالاً) هذا مأخوذ من إسناده إليهم وذمهم وأما تعليمه ليعرف فيجتنب فلا يقتضى الكفر ... والجملة حال من الضمير هذا أحد أقوال فيها ، وقيل إنها حال من الشياطين ورده أبو البقاء رحمه الله بأن لكنَّ لا تعمل فى الحال ، وفى الدر المصون أنه ليس بشئ ؛ لأن لكنَّ فيها رائحة الفعل فتأمل وضمير يعلمون عائد

---

(١) انظر التفسير القرآنى ١/ ١١ ــ ١١٧ .

(٢) انظر نظم الدرر ٢/ ٧٦ .

(٣) الكشاف ١/ ٣٠١ وانظر البحر المحيط ١/ ٣٥٧ وتفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٢/ ٣٤٧ .

إليهم ، وأما إذا رجع إلى الذين اتبعوا فهى حال من فاعل الذين اتبعوا ، أو استئنافية » [١] على أنها تعليل لقوله تعالى « ولكن الشياطين كفروا » [٢] .

وعبر القرآن بالمضارع فى قوله « يعلمون » للدلالة على أن تعليم السحر وتعلمه لم ينقطع ولن ينقطع ، فما زالت الشياطين تعلم السحر لمن يرغب من الإنس ومازال اتباع الشياطين يعلمون السحر لمن يرغب من إخوانهم من الإنس ، وهذا بخلاف مالوقال « علموا الناس السحر » ويعد مثل هذا التعبير من بلاغة القرآن التى تصور أحوال الشياطين مع البشر فى كل زمان .

ولو قال القرآن « يعلمون الناس » دون ذكر السحر لأمكن أن يتوهم أنهم يعلمون الناس شيئاً نافعاً غير السحر .

والواو فى قوله تعالى « وما أنزل على الملكين» حرف عطف ، وأما (ما) فقيل : إنها اسم موصول ، وهى فى محل نصب مفعول به ، والمعطوف عليه هو السحر فى قوله تعالى « يعلمون الناس السحر » وبهذا يكون الكلام فى وصف الشياطين ، وأنهم جمعوا بين تعليم السحر وتعليم ما أنزل على الملكين ، ويمكن أن يكون المعطوف عليه ما جاء فى قوله تعالى «ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان » وبهذا يكون الكلام فى وصف اليهود ، وأنهم قد جمعوا بين نبذ كتاب الله ، واتباع ما تتلوا الشياطين ، واتباع ما أنزل على الملكين ، وأن المراد بالسحر وبما أنزل على الملكين شئ واحد بالذات والعطف لتغايرهما بحسب الوصف والاعتبار ، أو أن المراد بما أنزل على الملكين نوع من أنواع السحر فهما متغايران ذاتاً ، وأن فائدة العطف التنصيص بأنهم يُعَلّمون ماهو جامع بين

---

(١) حاشية الشهاب ٢/ ٣٤٧ والبحر المحيط ١/ ٣٢٧ وانظر روح المعانى ١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(٢) انظر حاشية زاده ١/ ٣٦٧ .

كونه سحراً وبين كونه منزلاً على الملكين للابتلاء فيفيد ذمهم بارتكابهم النهى بوجهين ، أو من قبيل عطف الخاص على العام وذلك إشارة إلى كما له [١]

وفى قوله « وما أنزل على الملكين » بناءً على ماسبق إيجاز بالحذف سواء كان العطف على (السحر) قبله أو على مفعول (اتبعوا) والتقدير : ويعلمونهم ما أنزل على الملكين » و«اتبعوا ما أنزل على الملكين » ولما كان السياق لذم الشياطين بتعليمهم الناس السحر بنى الفعل « أنزل » للمجهول لأجل تعظيم المسند إليه المحذوف والذى يعود إلى الله تعالى ؛ ولأن مثل هذه المقامات مما تقتضى الإيجاز والاختصار .

ولعل السر فى التعبير عن المفعول بالاسم الموصول هو تحقير أمر هذا العلم الذى تقوم الشياطين بتعليمه . ولعل السر فى ذكر الجار والمجرور فى قوله تعالى « على الملكين » والذى تعلق بالفعل (أنزل) أن القرآن لو قال « وما أنزل ببابل هاروت وماروت » لدل هذا على أن الذى أنزل ببابل هو هاروت وماروت وليس المنزل السحر على الملكين ، وأن تذهب العقول فى هاروت وماروت كل مذهب وبذلك يكون التعبير موهماً ، والمراد بالإنزال هنا هو إنزال السحر على الملكين بالوحى والإلهام [٢] وإنزالهما إلى هذا المكان الذى ذكره الله تعالى وهو ببابل يقول الراغب «النزول فى الأصل هو انحطاط من علو يقال : نزل عن دابته ونزل فى مكان كذا حط رحله فيه ... وانزل الله نعمه ونقمه على الخلق واعطاؤهم إياها وذلك إما بانزال الشئ نفسه كانزال القرآن وإما بانزال اسبابه والهداية إليه كانزال الحديد ... والفرق بين الانزال والتنزيل فى وصف القرآن

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٣٠١ والبحر المحيط ١/ ٣٢٨ ، ومفاتيح الغيب ٣/ ٢٣٦ وحاشية الشهاب ٢/ ٣٤٨ وحاشية زاده ٣٧١ وروح المعانى ١/ ٥٣٦ ــ ٥٣٧ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١/ ٦٤٠ .

والملائكة أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقاً ومرة بعد أخرى والانزال عام » [١] .

والذى يبدو أن السحر الذى انتشر فى ذلك الزمان وكثر قد كان فى هذا المكان الذى ذكره الله تعالى وهو بابل ولذا قال « ببابل » وهذا الجار والمجرور قيل : « إنه ظرف لغو متعلق بأنزل أو ظرف مستقر حال من الملكين أى يعلمون ما أنزل فى بابل على الملكين أو ما أنزل عليهما حال كونهما ببابل أو حال من الضمير فى أنزل ... والباء على جميع التقارير بمعنى فى» [٢] .

وقد يلتبس على البعض اسناد الله تعليم السحر إلى الملكين بحجة أن الملائكة الأبرار لا يجوز أن يقوموا بمثل هذا العمل وكذا إنزال السحر إليهما وانزالهما إلى الأرض ، وهذا ما ذكره الطبرى ورد عليه فقال : « فإن التبس على ذى غباء ما قلنا فقال : وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه ؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة ؟ قيل له : إن الله جل ثناؤه عرّف عباده جميع ما أمرهم به وجميع مانهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر / والنهى معنى مفهوم فالسحر مما قد نهى عباده من بنى آدم عنه فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين اللذين سماهما فى تنزيله وجعلهما فتنه لعباده من بنى آدم ... ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه وعن السحر فيمحض المؤمن بتركه العلم منهما ويخزى الكافر بتعلمه السحر » [٣] ، وتبع الطبرى الزمخشرى [١] والبيضاوى والشهاب [٢] وشيخ زاده [٣] .

---

(١) المفردات للراغب / ٧٤٤ ــ ٧٤٥ .

(٢) حاشية شيخ زاده ١/ ٣٧٤ وانظر روح المعانى ١/٥٣٩ .

(٣) جامع البيان ١/ ٥٠٠ ، ٥٠١ .

وأما « هاروت وماروت » بناءً على ماذكر من أن المقصود [٤] بهما الملكين على الحقيقة فيعربان على البدل او عطف البيان من الملكين و لذا فصل بينهما لسر بلاغي هو كمال الإتصال .

ولما كان تعليم السحر من الملكين ليس وراءه غرض دنيوى بين أن الملكين لم يُقدما على تعليمه لأحد إلا بعد تقديم النصح إليه ؛ لأن من له أدنى غرض دنيوى لايقدم على توجيه النصح لمن له أدنى رغبة فى تعلم السحر ؛ لذا استأنف هذه النصيحة بقوله تعالى « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » ومثل هذه النصيحة تدل على بيان الفرق بين تعليم الملكين وتعليم الشياطين « قال على ـ رضى الله عنه ـ كانا يعلمان تعليم إنذار لا تعليم دعاء إليه كأنهما يقولان لا تفعل كذا كما لوسأل سائل عن صفة الزنا والقتل فأخبر بصفته ليجتنبه فكان المعنى فى يعلمان»[٥] ، فالواو تعد هنا استئنافيه وأما (ما) فنافية دخلت على المضارع المسند إلى ألف الاثنين والمعبر بها عن الملكين ، لنفى الفعل المسند إلى ألف الاثنين والمغيا بـ (حتى) فهى « حرف غاية والمعنى

---

(١) يقول الزمخشرى : « والذى أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به

كان كافراً ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً » الكشاف ٣٠١/١

(٢) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٤٨/٢ وروح المعانى ٥٣٦/١ ـ ٥٣٧

(٣) أنظر حاشية الشيخ زادة جـ ١ ، ص ٣٧١ – ٣٧٢.

(٤) انظر البحر المحيط ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠ وحاشية الشهاب ٢/ ٣٥١ وروح المعانى ١/ ٥٤٠.

(٥) البحر المحيط ١/ ٣٣٠ .

إنتفاء تعليمهما أو اعلامهما إلى أن يقولا « إنما نحن فتنة أى ابتلاء واختبار » [١].

ولم يقدم الملكان النصح لأحد دون أحد إنما كان هذا عاماً لكل من له رغبة فى التعلم ،ولعل هذا هو السر فى التعبير بالمضارع فى قوله « حتى يقولا » فالتعبير بالمضارع يدل على تجدد النصح منهما وحدوثه دون أدنى سهو أو نسيان ، ويدل عليه دخول (من) على المفعول به يقول أبو حيان : « ومن زائدة [٢] لتأكيد استغراق الجنس ؛ لأن أحد من الألفاظ المستعملة للاستغراق فى النفى العام فزيدت هنا لتأكيد ذلك بخلاف قولك « ما قام من رجل » فإنها زيدت لاستغراق الجنس » [٣] ، ووقعت « جملة إنما نحن فتنة فى محل نصب : [لأنها] مقول القول [٤] ومجئ هذه الجملة فى سياق « ... القصر لبيان أنه لا رغبة لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه » [٥]

ولا يخفى على من له رغبة فى تعلم السحر أن مثل هذا يمكن أن يكون فتنة له فى دينه فجاء أسلوب القصر بـــ « إنما » حيث يعبر بها » فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره فهى أداة هادئة تستعمل فى المعانى الواضحة التى لا ينكرها المخاطب ولا يجهلها عكس النفى والاستثناء الذى يستعمل فى المعانى القوية

---

(١) السابق .

(٢) القول بزيادة الحروف فى القرآن مما يحتاج إلى نظر ؛ لأن الظاهر من مفهوم الزيادة أن وجود الحرف وعدمه سواء فى تأدية المعنى المراد وهذا مما لا يتسق هنا لأن (من) افادت تأكيد استغراق الجنس وبذلك لا يحكم بزيادتها ، إلا إذا أراد أبو حيان معنى آخر للزيادة غير هذا .

(٣) البحر المحيط ١/ ٣٣٠ وانظر نظم الدرر ٢/ ٧٧ .

(٤) الجدول فى اعراب القرآن ١/ ٢١٧ .

(٥) روح المعانى ١/ ٥٤٠ .

والنبرات الجادة والأمور الغريبة » [١] ، ويدل على هذا بيان القرآن عن رغبة المتعلم فى قوله تعالى « ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » والمقصور (نحن) والمقصور عليه (فتنة) ومقتضى الظاهر أن يكون المقصور عليه مثنى ؛ لأنه خبر (نحن) ولكن جاء مفرداً ؛ لأنه مصدر فلا يثنى ولا يجمع ، وأصل معنى فتنة أنه من فتن الذهب أى أدخله النار لتظهر جودته من رداءته [٢] ، وعبر به هنا عن الابتلاء والاختبار على جهة الإستعارة الأصلية ، ولذا عقبه بأسلوب النهى فى قوله تعالى « فلا تكفر » والفاء هنا رابطة لجواب شرط مقدر ، و(لا) ناهية ، وجملة (لاتكفر) لا محل لها جواب الشرط المقدر ، أى إذا كنا كذلك فلا تكفر [٣] فالنهى يدل على شدة التحذير من العمل به ؛ لأن مثل هذا العلم مما يتعلق به ضرر من الساحر لمن حوله ؛ لأن النفوس البشرية ليست على درجة واحدة من التقوى : ولأن متعلم السحر إذا تعرض لأدنى أذى من غيره بقصد أو بدون قصد يحاول الانتصار لنفسه عن طريق السحر ، بالانتقام ممن آذاه .

وأما الفاء فى قوله تعالى « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » فهى على وجهين ، الأول : أنها استئنافية ؛ ولذلك جاء المضارع مرفوعاً بعدها ، والثانى : أنها عاطفة ، وبناءً على هذا اختلف فى المعطوف عليه على وجوه ذكرها أبو حيان على النحو التالى : أن المعطوف عليه محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير: وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فيأبون فيتعلمون ، ونسب هذا إلى الفراء والزجاج ، أو أن المعطوف عليه قوله تعالى «يعلمون الناس السحر » ونسب هذا إلى الفراء وأنكره الزجاج بسبب لفظ الجمع

---

(١) علم المعانى د/ بسيونى فيود ص / ٦٨ ــ ٦٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ٢/ ٧٧ وروح المعانى ١/ ٥٤٠ والمفردات للراغب /٥٥٩ .

(٣) انظر الجدول ١/ ٢١٥ ــ ٢١٦ .

فى قوله تعالى « يعلمون » ، أو أن المعطوف عليه ما جاء قبلها ، وأن هناك ضميراً مقدراً ، أى : فهم يتعلمون وبذلك تكون جملة ابتدائية ، ويعد هذا من عطف الجمل من باب عطف الجملة الاسمية على الفعلية ، ونسب هذا إلى سيبويه وبناءً على هذه الوجوه يكون المسند إليه فى قوله « فيتعلمون » عائداً إلى الناس ، أو أن المعطوف عليه قوله : « وما يعلمان» وبذلك يكون المسند إليه عائداً إلى (أحد) وجاء الفعل بصيغة الجمع حملاً على المعنى استدلالاً بقوله تعالى « فما منكم من أحد عنه حاجزين [1] » وأن هذا العطف وإن كان على منفى إلا أن هذا المنفى موجب فى المعنى ؛ لأن معناه : أنهما يعلمان كل واحد إذا قالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر أو أن المعطوف عليه محذوف أيضاً تقديره « يعلمان فيتعلمون ، وحذف « يعلمان » لدلالة السياق عليه ونسب هذا إلى الزجاج ، أو أن المعطوف عليه » الذين كفروا ، وقد رجح أبو حيان أن المعطوف عليه قوله تعالى « وما يعلمان من أحد » مستدلاً على ذلك بأن المنفى موجب فى المعنى [2].

ولعل الذى يتفق مع سياق الكلام هو الوجه الأول، الذى يقدر فيه المعطوف عليه محذوفاً وهو فيأبون قبول النصيحة فيتعلمون فهو يدل على رفضهم النصيحة وعدم قبولها ، ويدل أيضاً على سؤال مقدر بعد قوله « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة » : ما موقف الراغبين فى تعلم السحر بعد سماع النصيحة من الملكين ؟ فيكون المقدر هو ومابعده جواباً عن ذلك .

ولعل السر فى ذكر الجار والمجرور فى قوله « منهما » والمتعلق بالفعل « يتعلمون » دفع توهم تعلم السحر من غيرهما ، فلو حذف هذا المتعلق لتوهم البعض أن تعلم السحر يكون من غيرهما كالشياطين والسحرة وعبر القرآن عن

---

(١) الحاقة : ٤٧ .

(٢) انظر جامع البيان ١/ ٥٠٧ ، وانظر البحر المحيط ١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢ .

المفعول به وهو السحر بالاسم الموصول فى قوله تعالى « مايفرقون به بين المرء وزوجه » للدلالة على قبح ما يتعلمونه ، وأنهم لم يتعلموا منهما ما يكون نافعاً كأن يتعلموا ما يستخدمونه فى معالجة المصاب بالسحر أو إدراك الفرق بين المعجزة والسحر ، فعبر عنه بما يترتب عنه من أثر قبيح .

وصدرت جملة الصلة بالمضارع فى قوله « ما يفرقون به ... » ومقتضى الظاهر «مافرقوا » ؛ لأن هذا حكاية حال ماضية ، لاستحضار الصورة الغريبة وهى الرغبة فى التعلم؛ ولأن التعبير بالماضى يمكن أن يدل على أنهم قد تعلموا ما يفرقون به بين المرء وزوجه ،وأن مايفرق به بين المرء وزوجه قد انقضى وليس له اثر ، وهذا بخلاف الواقع ، فمازال السحر يستخدم فى هذا الأمر إلى الآن ، فانقضاء زمن الملكين لا يمنع أن الذين تعلموا منهما من اليهود ومن غيرهم قد صاروا معلمين لأتباعهم ؛ لأن اليهود يدخلون ضمنا ؛ لأن سياق الآية فى ذمهم على ارتكابهم عدة جرائم منها تعلم السحر وتعليمه .

وعبر القرآن عن قطع العلاقة بين المرء وزوجه بالتفريق « يفرّقون » ؛ لأن المقصود بالتفريق الانفصال يقول الراغب ، وفرقت بين الشيئين فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة » [1] ، وقال « يفرّيون » بتشديد الراء دون « يفرقون » بتخفيفها ؛ لأن علاقة المرء بزوجه من العلاقات القوية التى تفوق أى علاقة أخرى بمعنى أن الانفصال بينهما إنما يكون بقوة جذب لكل طرف إلى جهة عكس الجهة الأخرى ، وفيه أيضاً دلالة على قوة تأثير مثل هذا النوع من السحر فى قطع تلك العلاقة يقول ابن عاشور : « قوله : مايفرقون به بين المرء وزوجه » إشارة إلى جزئى من جزئيات السحر وهو أقصى تأثيراته إذ فيه التفرقة بين طرفى آصرة متينة إذ هى آصرة مودة ورحمة ، قال تعالى « ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها

---

(١) المفردات للراغب (فرق) / ٥٦٨ .

وجعل بينكم مودة ورحمة »[١] ، فإن المودة وحدها آصرة عظيمة وهى آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فماظنكم بآصرة جمعت الأمرين وكانت بجعل الله تعالى ؟ وما هو بجعل الله فهو فى أقصىدرجات الإتقان » [٢] ولعل السر فى ذكر الجار والمجرور فى قوله « به » والمتعلق بالفعل « يفرقون » الدلالة على التفريق بين المرء وزوجه لا يكون إلا بالسحر وليس بشئ سواه .

وخص القرآن التفريق بين المرء وزوجه دون غيره من العلاقات ؛ لأنها ـ كما ذكر ـ قبل إنها مبنية على قوة الصلة بينهما ؛ ولأن التفريق بينهما من أعظم الأضرار التى لا تصيب الرجل أو المرأة فقط إنما يمتد خطرها إلى الأبناء الذين يعيشون حياة تمزق وتشتت وبدلاً من أن يكونوا عنصر بناء فى المجتمع يمكن أن يتحولوا إلى عنصر هدم .

ولما ساد الاعتقاد عند العامة أن السحر مؤثر بذاته ، وأن الساحر هو القادر على الحاق هذا الضر بالمسحور على الحقيقة ، أراد الله تعالى الرد على مثل هذا الاعتقاد فقال :(وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فهذه الجملة جاءت معترضة بين قوله تعالى «ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » وبين قوله تعالى « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » لبيان أن السحر فيه ضرر عظيم وتأكيد مبدأ الفرق بين الالوهية والعبودية فيما يتعلق بلحوق ضرر السحر بالمسحور ، وهو أن الله تعالى بما له من القدرة والعظمة والهيمنة الكاملة على الكون بكل ما فيه لا يشذ عن علمه وقدرته وإرادته شئ فما أراده

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) التحرير والتنوير / ٦٤٤ .

كان وما لم يرده لم يكن قال تعالى « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » [١].

وأما ما يصدر من العباد من أفعال سواء كانت سحراً أو عدمه يعتقد فى الظاهر نسبتها إليهم فليس بصحيح إنما هى تقع بتمكين الله تعالى لهم المالك للأسباب والمقدر للمسببات ولذا جاء هذا فى سياق القصر الذى طريقه النفى والاستثناء فقد قصر الضر الواقع على المسحور على إذن الله تعالى ونفاد عن السحرة ، فقوله تعالى « وماهم بضارين به من أحد » مقصور ، ومستثنى منه ، و(إلا) أداة استثناء و « إذن الله » مستثنى ، والاستثناء مفرغ من الأحوال فهو فى محل نصب على الحال والباء متعلقة بمحذوف وقع حالاً ، وصاحب الحال فيه أربعة أوجه أحدها : أنه الفاعل المستكن فى قوله « بضارين » ، الثانى : أنه المفعول وهو أحد وجاءت الحال من النكرة لاعتمادها على النفى ، الثالث : أنه الهاء فى (به) أى بسحر والتقدير : وما يضرون أحداً بالسحر إلا ومعه علم الله أو مقروناً بإذن الله ونحو ذلك ، الرابع : المصدر المفهوم من الوصف وهو الضر إلا أنه حذف للدلالة عليه [٢].

واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى « وماهم » على ثلاثة أوجه أرجحها الأول والثانى ، يقول السمين : « والضمير فى ثلاثة أقوال : أحدها : أنه عائد على السحرة العائد عليهم ضمير (فيتعلمون) ، الثانى : يعود على اليهود العائد عليهم ضمير (واتبعوا) ، الثالث : يعود على الشياطين والضمير فى (به) يعود على (ما) فى قوله (مايفرقون) » [٣].

---

(١) يس : ٨٢ .

(٢) الدر المصون ١/ ٣٢٧ ، وروح المعانى للألوسي ١/ ٥٤٣ بتصرف .

(٣) الدر المصون ١/٣٢٦ .

ويجوز أن يراد أيضاً بالضمير كل من يقوم بالسحر إلى يوم القيامة ، ولعل السر فى التعبير عنهم بضمير الغائب فى قوله « وماهم بضارين » التحقير ؛ لأن أمثال هؤلاء يجب أن يكونوا محل تحقير لقيامهم بالحاق الضر بالناس والتى منها التفريق بين المرء وزوجه والضر المسند إليهم قد وقع على قوله (أحداً) فأحد مفعول به منصوب محلاً مجرور لفظاً بـــ (من) الدالة على استغراق الجنس .

ولعل السر أيضاً فى التعبير بالجار والمجرور فى قوله (به) دفع توهم لحوق الضر بالمسحور بغير السحر ، والباء فيها معنى السببية أى بسببه والإذن هو « التخلية بين المسحور وضرر السحر قاله الحسن وفيه دليل على أن فيه ضرراً مودعاً إذا شاء الله حال بينه وبينه ، وإذا شاء خلاه وما أودعه فيه ، وهذا مذهب السلف فى سائر الأسباب والمسببات » [١] .

فهذا الإذن لايشذ عن إرادة الله وقضائه وقدره بالنسبة إلى لحوق السحر بالمسحور ، فالله تعالى إذا شاء وقوع السحر وقع وإذا لم يشأ لم يقع بدليل ما جاء فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى شأن سحرة فرعون فى قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ » [٢] وفى قوله تعالى « فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ»[٣] .

إذن نصل إلى أن الله تعالى إذا قدر لحوق الضرر من الساحر على المسحور وقع وإذا لم يقدر ذلك لم يقع وفي هذا أبلغ رد على اليهود ومن على شاكلتهم .

---

(١) روح المعانى : ١/ ٥٤٣ .

(٢) الأعراف : ١١٧ ــ ١١٩ .

(٣) يونس : ٨١ .

والواو فى قوله تعالى « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم حرف عطف ، المعطوف عليه قوله تعالى « ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » وقد تضمن المعطوف عليه ضرراً يلحق المرء وزوجه ، وتضمن نفعاً يصل إلى الساحر من وراء قيامه بالسحر من وجهة نظر متعلم السحر ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين إن تعلم السحر ليس وراءه أى منفعة سواء كانت مادية أو معنوية دنيوية أوأخروية ؛ لأن الساحر ومن يدفعه إلى فعل السحر يعتقد أن أنهما قد حصلا على نفع من وراء ايذاء الناس بالسحر ، ولكن الحقيقة أنهما لم يحصلا على أى نوع من أنواع النفع إنما اكتسبا إثماً عظيماً وضرراً كبيراً ولذلك يذكر الزمخشرى السبب فى أن تعلم السحر لا يكون وراءه إلا الضر الراجع إلى متعلمه فقال « لأنهم يقصدون به الشر وفيه أن اجتنابه أصلحُ » [1]، وهذا ما قاله ايضا أبو السعود « لأنهم يقصدون به العمل ، أولأن العلم يجر إلى العمل غالباً » [2].

وقد أحاط الله علماً بأن هناك طائفة لا تعرف طريقاً إلى الخير ترى أن تعلم السحر سوف يجعل لهم مكانة كبيرة ومنزلة عظيمة فى المجتمع لا عمل لهم سوى الكسب الحرام من وراء العمل به فأراد القرآن بيان أن تعلم السحر ليس وراءه أى نفع ، ولذلك عبر بالمضارع فى قوله « ويتعلمون » للدلالة على أن تعلم السحر فى أى زمان لا يعود على من تعلمه بالنفع وإنما يعود عليه بالضر ، والتعبير عن المتعلمين بضمير الغائب لا رادة التحقير والتعليم المسند إليهم قد وقع على (ما) الموصولة ولعل السر فى مجئ المفعول به اسم موصول تحقير تعلم مثل هذا العلم وهو السحر ؛ ولأن كل علم لايعود على صاحبه إلا بالضرر فهو حقير وإفادة الضر من تعلم السحر قد تحقق بقوله تعالى «ويتعلمون ما يضرهم » فلِمَ عطف عليه قوله تعالى «ولا ينفعهم » ؟

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٠١ .

(٢) تفسير أبى السعود : ١/ ٥٦ .

وفى الجواب عن ذلك قال الألوسى : « للإيذان بأنه شر بحت وضرر محض لا كبعض المضار المشوبة بنفع وضرر ؛ لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب السحرة ولا إماطة الأذى عن الطريق حتى يكون فيه نفع فى الجملة .

وفى الإيتان بـ (لا) إشارة إلى أنه غير نافع فى الدارين ؛ لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش ولا المعاد ، وفى الحكم بأنه ضار غير نافع تحذير بليغ لمن القى السمع وهو شهيد عن تعاطيه وتحريض على التحرز منه » [١] .

وأما الواو فى قوله تعالى « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » فهى حرف عطف ، والمعطوف عليه قوله تعالى » ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » واختلف فى المسند إليه فعل العلم فقيل يعود على اليهود الذين كانوا فى عهد سليمان ـ عليه السلام ـ وكانوا حاضرين حين استخرج الشياطين السحر ودفنه ، أو أخذ سليمان السحر ودفنه تحت كرسيه ولما اخرجوه بعد موته قالوا والله ما هذا من عمل سليمان ولا من ذخائره ، وقيل عائد على من بحضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى لقد علم النابذون من يهود بنى اسرائيل كتابى وراء ظهورهم تجاهلاً منهم ، التاركون العمل بما فيه من اتباعك يا محمد واتباع ما جئت به بعد أن أنزلت إليك كتابى مصدقاً لما معهم ... لمن اشترى السحر بكتابى الذى أنزلته على رسولى فآثره عليه ماله فى الآخرة من خلاق ، وقيل عائد على علماء اليهود فقد علموا أنه لا خلاق لهم فى الآخرة [٢] .

---

(١) روح المعانى : ١ / ٥٤٤ .

(٢) انظر جامع البيان ١/ ٥١٠ والكشاف ١/ ٣٠١ والبحر المحيط ١/ ٣٣٣ وحاشية زاده ١/ ٣٧٥ .

وسواء كان المراد بهم اليهود الذين كانوا فى عهد سيدنا سليمان أو الذين كانوا فى عهد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو احبارهم أو فى العصر الحديث ، فاليهود هم اليهود.

ولما كان قيامهم بالسحر تعلماً وتعليماً وعملاً من الذنوب التى يدركون عاقبة فعلها فى الآخرة مما يثير الانتباه لدى السامعين والمخاطبين بهذا التساؤل : كيف يقدمون على هذا مع ادراكهم لعواقبه السيئة ؟ وفى الجواب عن ذلك يقال : إنّ ذلك راجع إلى اختيارهم ولذا جاء قوله تعالى «ولقد علموا » مشتملاً على العديد من أدوات التوكيد الدالة على معرفتهم بنتائج أفعالهم من ذلك أسلوب القسم المقدر أى والله لقد علموا ، واللام المصدر بها الجواب و(قد) [1] .ثم التعبير عن هذه المعرفة بالعلم الذى يراد به « إدراك الشئ بحقيقته»[2] .

فهناك فرق بين من يقدم على عمل وهو جاهل بما يترتب عليه من عواقب ، وبين من يقدم عليه وهو عالم بما يترتب عليه من عواقب .

وأما اللام فى [لمن] فهي لام الابتداء وهى المانعة من عمل علم وهى أحد الأسباب الموجبة للتعليق » [3] . وسدت جملة «مَنْ اشتراه » مسد مفعولى « علموا » [4] والسر في التعبير عن هؤلاء بمن تحقيرهم فقد باعوا الباقي بالفاني .

وأما (مَنْ) فى قوله (لمن اشتراه) فقد اختلف فيها على وجهين ، الأول : أنها موصولة وقعت فى محل رفع مبتدأ ، وصلة مَنْ قوله تعالى « اشتراه » وأما قوله « ماله فى الآخرة من خلاق » فجاءت فى موضع الخبر واللام فى لقد للقسم

---

(١) أنظر نظم الدرر : ١ / ٨١ .

(٢) المفردات (علم) ص / ٥١٣ .

(٣) البحر المحيط : ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٤) انظر الجدول : ١/ ٢١٨ .

وجملة (ولقد علموا) مقسم عليها والتقدير والله لقد علمو أو جملة (لمن اشتراه) غير مقسم عليها ، وهذا ماذهب إليه سيبويه وأكثر النحويين ، وأما الوجه الثانى فهو أن يكون قوله تعالى « لمن اشتراه » مقسماً عليه وتكون (مَنْ) للشرط وهى أيضاً فى موضع رفع بالابتداء وجملة (اشتراه) خبر عن (مَنْ) وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم ، لأنه إذا اجتمع شرط وقسم ولم يتقدمهما ذو خبر وعندئذ يكون الجواب للسابق منهما وهو القسم وهذا ما ذهب إليه الفراء والحوفى وأبو البقاء[1] .

وأما الضمير فى قوله « اشتراه » فيرجع إلى السحر أو الكفر أو كتابهم الذى باعوه أو القرآن ؛ لأنهم تعوضوا عنه بكتب السحر [2] ، ويذكر الشراء ويراد به البيع والشراء معاً أى أن الشراء يستعمل أيضاً فى البيع ، وهم فى الحقيقة لم يبيعوا شيئاً ويستعيضوا عنه بشئ آخر ، إنما آثروا شيئاً على شئ أو استبدلوا شيئاً بشئ ، فقد شبه القرآن إيثارهم للعمل بكتب السحر وتعليمه وما يتصل بذلك من المكاسب الدنيوية التى يحصدونها من وراء ذلك وهم على وعى وإدراك بما يترتب على ذلك من نتائج ، آثروا ذلك على كتاب الله التوراة الذى ينهاهم عن مثل هذا العمل ويدعوهم إلى الإيمان والتصديق بالقرآن وبسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شبه ذلك بالتاجر الذى اشترى سلعة رخيصة تافهة حقيرة بسلعة لا تقدر ـ فى عالم الربح والتجارة ـ بثمن ، لأن هذه السلعة ليست متاعاً وليست مالاً إنما هى الحياة الأخروية الأبدية إنها الخلود فى النعيم الذى لا يساويه ولا يضاهيه الدنيا بما فيها وما عليها ومع ذلك هو عالم بعظمه قيمة سلعته ، على جهة الاستعارة فالعلاقة المشابهة فى أن كلاً منهما قد استبدل

---

(١) البحر المحيط ١/٣٣٤ ، وانظر حاشية شيخ زاده ١/٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

(٢) البحر المحيط ١/ ٣٣٤ بتصرف .

ماهو حقير بما هو عظيم [١] ولذلك « نفى الخلاق وهو نكرة مع تأكيد النفى بـ (من) الاستغرافية [وفى هذا] دليل على أن تعاطى هذا السحر جرم وكفر أو دونه فلذلك لم يكن لمتعاطيه حظ من الخير فى الآخرة وإذا انتفى كل حظ من الخير ثبت الشر كله ؛ لأن الراحة من الشر خير وهى حالة الكفاف ، وقد تمناها الفضلاء أو دونه خشية من الله » [٢] .

فالسحر من الأعمال السيئة التى تتوارثها الأجيال والتى من شأنها أن تؤدى إلى زرع الحقد والحسد والضغينة والبغضاء فى النفوس مما يؤدى إلى قطع الأواصر والعلاقات والصلات بين الناس،ولذلك ذم الله سبحانه وتعالى اليهود ومن يسلك مسلكهم فى قوله تعالى« ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون» .

والواو فى قوله « ولبئس ما شروا به أنفسهم » حرف عطف والمعطوف عليه القسم الأول فى قوله « ولقد علموا » والتقدير : والله لبئس ما شروا به ، واللام واقعة فى جواب القسم المقدر ، وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره هو ، و(ما) نكرة فى محل نصب تمييز للضمير المستتر ويجوز أن تكون معرفة والمصدر المؤول فاعل بئس والمخصوص بالذم محذوفاً تقديره الكفر أو السحر [٣] .

وأسند القرآن الشراء إلى الضمير العائد إلى اليهود فى قوله « شروا » وهذا الفعل « من الأضداد حيث يستعمل فى كل واحد من البيع والشراء وههنا كل واحد من المعنيين محتمل ، أما معنى البيع فمن حيث أنهم بدلوا حظوظ أنفسهم الخاصة باختيار كتاب الله والعمل بما فيه واختاروا ماتتلوا الشياطين وعملوا به فاستحقوا بذلك الخلود فى جهنم ، وأما معنى الشراء فمن حيث أنهم

---

(١) البحر المحيط ١/ ٣٣٤ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٤٦ ــ ٦٤٧ .

(٣) انظر الجدول فى إعراب القرآن ١/ ٢١٩

ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من التعب والمشقة بما فعلوه من استبدال ما تتلوه الشياطين بكتاب الله تعالى وما اختاروا إلا العذاب الدائم المؤبد » [١] ، ولا يخفى ما فى ذلك من استعارة على ما مر .

وجملة « شروا » وقعت فى محل نصب نعت لـ (ما) والضمير فى (به) يعود على الكفر أو السحر ، و(أنفسهم) مفعول به والهاء مضاف إليه و(لو) حرف شرط غير جازم ، وجواب (لو) محذوف تقديره (لما فعلوا ذلك من تعلم السحر وايذاء الناس ... أو لما باعوا أنفسهم [٢] .

والملاحظ أن القرآن أثبت لهم فى قوله « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاف » ونفاه عنهم فى قوله تعالى « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » فكيف يوفق بينهما ؟ وفى الجواب عن ذلك ذكر الطبرى وجهين الأول : أن السياق فيه تقديم وتأخير ، لاختلاف عود الضمير فى السياق ، لأن المسند إليه فى « علموا » غير المسند إليه « لو كانوا يعلمون » ، والثانى : أن الضمير فيهما لا يعود على مختلف بمعنى ان المسند إليه فيهما واحد ، ولما لم يعملوا بما علموا نزلوا منزلة الجهلاء فقال : « فإن قال قائل : وكيف قال جل ثناؤه «ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » وقد قال قبل « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق « فكيف يكونوا عالمين بأن من تعلم السحر فلا خلاق لهم وهم يجهلون أنهم بئس ما شروا بالسحر أنفسهم ؟ قيل : إنَّ معنى ذلك على غير الوجه الذى توهمته من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به ولكن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وإنما معنى الكلام : وماهم ضارون به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كان يعلمون ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى

---

(١) حاشية زاده : ١/ ٣٧٦ .

(٢) انظر الجدول : ١ / ٢١٩ .

الآخرة من خلاف ، فقوله « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ، ذم من الله تعالى ذكره فعْلَ المتعلمين من الملكين التفريق بين المرء وزوجه ، وخبر منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ماشروا به أنفسهم برضاهم بالسحر عوضاً عن دينهم الذى به نجاة أنفسهم من الهلكة جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم وخسارة صفقة بيعهم إذ كان قد يتعلم ذلك منهما من لا يعرف الله ولا يعرف حلاله وحرامه وأمره ونهيه ، ثم عاد إلى الفريق الذى أخبر عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما أنزل على الملكين فأخبر عنهم أنهم قد علموا أن من اشترى السحر ماله فى الآخرة من خلاق ووصفهم بأنهم يركبون معاصى الله على علم منهم بها ويكفرون بالله ورسله ويؤثرون اتباع الشياطين والعمل بما أحدثته من السحر على العمل بكتابة ووحيه وتنزيله عناداً منهم ونعياً على رسله وتعديا منهم لحدوده على معرفة منهم بما يفعل ذلك عند الله من العقاب والعذاب .. وقال بعضهم إن الذين وصف الله جل ثناؤه بقوله « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » فنفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله « لو كانوا يعلمون » بعد وصفه إياهم بأنهم قد علموا بقوله « ولقد علموا » من أجل أنهم لم يعملوا بما علموا وإنما العالم العامل بعلمه ، وأما إذ خالف عمله علمه فهو فى معانى الجهال . وهذا تأويل وإن كان له مخرج ووجه فإنه خلاف الظاهر المفهوم بنفس الخطاب أعنى بقوله « ولقد علموا » وقوله « لو كانوا يعلمون » وإنما هو استخراج وتأويل للقرآن على المفهوم الظاهر من الخطاب دون الخفى الباطن منه » [1] .

فكما هو واضح من كلام الطبرى أنه يرجح الرأى الأول ، وهو فى هذا عكس الزمخشرى الذى يرى أن الوجه هو الثانى فقال « فإن قلت : كيف أثبت لهم العلم أولاً فى قوله « ولقد علموا» على سبيل التوكيد القسمى ثم نفاه عنهم

---

(١) جامع البيان : ١/٥١٢ ــ ٥١٣.

فى قوله « لو كانوا يعلمون » ؟ قلت معناه لو كانوا يعملون بعلمهم جعلهم حين لم يعملوا به كأنّهم منسلخون عنه » [١] .

وأما الرازى فلم يزد على ماذكره الطبرى إلا ان الوجه الثانى فرعه إلى اثنين فقال : «بقى فى الآية سؤال وهو أنه كيف أثبت لهم العلم اولاً فى قوله « ولقد علموا » ثم نفاه عنهم فى قوله « لو كانوا يعلمون » والجواب من وجوه : احدها : أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا ، فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعليمه وهم الذين قال الله فى حقهم « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » وأما الجهال الذين يرغبون فى تعلم السحر فهم الذين لا يعلمون وهذا جواب الأخفش وقطرب .

وثانيها : لو سلمنا كون القوم واحداً ولكنهم علموا شيئاً وجهلوا شيئاً آخر علموا أنهم ليس لهم فى الآخرة خلاق ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها .

وثالثها : لو سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ولكنهم لم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمّى الله تعالى الكفار صماً وبكما وعميا إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس ، ويقال للرجل فى شئ يفعله لكنه لا يضعه موضعه : صنعت ولم تصنع » [٢] .

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٠٢ وانظر حاشية الشهاب ٢/ ٣٥٢ .

(٢) مفاتيح الغيب : ٣/ ٢٤١ .

الرد على النصارى ببيان فساد اعتقادهم

قدر الله تبارك وتعالى خلق عيسى ـ عليه السلام ـ ابتلاء للنصارى فضلوا بادعائهم الألوهية له، فرد القرآن عليهم بأسلوب القصر بأن المسيح رسول وليس إله ، ووضح لهم بشريته وبشرية أمه بأسلوب الكناية فى قوله تعالى « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون » [١] .

ولما تمادوا فى غيهم ولجو فى عنادهم حيث لم يجد معهم ترغيب أو ترهيب أمر الله تعالى رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينكر عليهم تمسكهم بعبادة المسيح وإصرارهم على هذه العبادة وأن يوبخهم على ذلك فقال : فالأمر فى قوله تعالى «قل » يدل على أهمية المأمور به وهو مقول القول والذى جاء فى قوله « أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » وهو فى محل نصب مفعول به جئ به ليان أن عبادتهم المسيح لا يتحقق الغرض من ورائها وهو النفع والضر ولذا جاءت الهمزة فهى للاستفهام الانكارى التوبيخى الذى يراد به ما كان ينبغى أن تعبدوا مَنْ هو دون الله تعالى والموصوف بصفات العجز ، يقول البقاعى : « ولما نفى عنهما الصلاحية لرتبة الألوهية للذات أتبعها نفى ذلك من حيث الصفات فقال منكراً مصرحاً بالإعراض عنهم إشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للاقبال عليهم » [٢] .

فشأن الشريك أن يكون مساوياً فى الرتبة لمن يشاركه وبالنظر فى أحوال المسيح يتبين أنه عبد الله ورسوله ومحتاج وعاجز فلا يصلح لرتبة الألوهية التى وضعوه فيها يقول الرازى فى ذلك : « إنّ إله العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ما

---

(١) المائدة : ٧٥ .

(٢) نظم الدرر : ٦/ ٢٥٦ .

سواه ويكون ما سواه محتاجاً إليه فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله ؛ لأن الإله لا يعبد شيئا ، إنما العبد يعبد الإله ، ولما عرف بالتواتر كونه مواظباً على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجاً فى تحصيل المنافع ودفع المضار عنهم وإذا كان كذلك كان كسائر العبيد » [١] .

وإنكار القرآن عبادة النصارى للمسيح وتوبيخهم ليست لمن خوطبوا بهذه الآية أول ما نزلت إنما الانكار والتوبيخ متجدد ؛ لأن الاشراك بالمسيح لم ينقطع ، وإنما هو مستمر إلى الآن ، ولم يقفوا عند التمسك بعبادته إنما بذلوا كل جهد ، وأنفقوا الأموال الطائلة فى دعوة كل من ليس منهم إلى النصرانية تحت ما يسمى بالتبشير مستغلين فى ذلك فقر بعض الأقليات فى العالم سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة ، عن طريق الاغراء بالأموال ، ولهذا لم يقل القرآن «أعبدتم» بالماضى وإنما عبر بالمضارع ؛ لأنهم مازالوا يعبدون ومازال القرآن ينكر عليهم ويوبخهم على هذه العبادة وعبر القرآن عن اعتقادهم بألوهية المسيح بالعبادة ؛ لأن «العبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها فى غاية التذلل ، ولايستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ، ولهذا قال : « ألا تعبدوا إلا إياه » [٢] .

ولما اعتقدوا مشاركة المسيح لله تعالى فى الألوهية بين الله لهم عدم المساواة ، وبالتالى عدم الشركة ؛ لأن منزلة المسيح دون منزلة الله تعالى فقال « من دونه » يقول الراغب فى المراد بـ (دون) : « يقال للقاصر عن الشئ دون ، قال بعضهم : هو مقلوب من الدُّنو ، والأدون الدنى ، وقوله تعالى « ولا تتخذوا بطانة من دونكم » [٣] . أى ممن لم يبلغ منزلته منزلتكم فى الديانة ،

---

(١) مفاتيح الغيب : ١٠٦/٦ .

(٢) المفردات للراغب (عبد) / ٤٧٩ .

(٣) آل عمران : ١١٨ .

وقيل : فى القرابة ، وقد يقرأ بلفظ دَوْن فيقال : دَوْنَك كذا أى تناوله . قال القتيبي: يقال : دان يَدُون دَوْنا : ضعف » [١] .

فالقرآن يريد انكار عبادتهم لمن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولذا أوقع الفعل المسند إلى الضمير العائد إليهم على (ما) فهى فى محل نصب مفعول به « مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب .

والمقصود بـ (ما) هنا المسيح ـ عليه السلام ـ ، والمعلوم أن (ما) يعبر بها عن غير العاقل و(مَنْ) يعبر بها عن العاقل ، فما السر فى التعبير بـ (ما) هنا؟ وفى الجواب عن ذلك يقول أبو السعود : « والموصول عبارة عن عيسى ـ عليه السلام ـ وإيثاره على كلمة (مَنْ) لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزل عن الألوهية رأساً ببيان انتظامه ـ عليه السلام ـ فى سلك الأشياء التى لا قدرة لها على شئ أصلاً » [٢] .

وأما أبو حيان فذكر فى ذلك وجوهاً فى ذلك فقال : « وعبر بـ (ما) تنبيهاً على أول أحواله إذ مرت عليه أزمان حالة الحمل لا يوصف بالعقل فيها ومن هذا صفته فكيف يكون إلهاً ؟ ؛ أو لأنها مبهمة كما قال سيبويه و(ما) مبهمة تقع على كل شئ ، أو أريد به ما عبد من دون الله ممن يعقل ومالا يعقل وعبر بـ (ما) تغليباً لغير العاقل إذ أكثر ما عبد من دون الله هو مالا يعقل كالأصنام والأوثان ، أو أريد النوع أى النوع الذى لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً كقوله تعالى » فانكحوا ما طاب لكم من النساء » [٣] أى النوع الطيب » [٤] .

---

(١) المفردات للراغب (دون) / ٢٥٢ .

(٢) تفسير أبى السعود ٢/ ٥٢٢ .

(٣) النساء : ٣ .

(٤) البحر المحيط : ٣/ ٥٣٨ وانظر روح المعانى ٣٠٦/٤ .

ويمكن أن يقال عبر بـ (ما) إشارة إلى ما كان من أحواله قبل الخلق ؛ لأنه كان قبل خلقه فى طي العدم ، وأيضاً إشارة إلى حاله الآن ، فقد كان موجوداً بجسمه بينهم ولما عزم اليهود على صلبه رفعه الله إليه .

وأما القول بالتغليب أو إرادة النوع مما ذكره أبو حيان فممالا يتفق والسياق ؛ لأن السياق فى الحديث عن المسيح ـ عليه السلام ـ والله أعلم .

وصدرت جملة الصلة بـ (لا) الداخلة على المضارع المفيد للتجدد والحدوث والمسند إلى الضمير المستتر العائد إلى المسيح ـ عليه السلام ـ ؛ وذلك لقطع كل أطماعهم منه ـ عليه السلام ـ فهو لا يملك ،، ولايستطيع أن يدفع عنهم أى نوع من أنواع الضر سواء كان دنيوياً أو أخروياً ، ولايملك أن يجلب لهم أى نوع من أنواع النفع سواء كان دنيوياً أو أخروياً منذ أن كان بينهم وبعد أن رفعه الله تعالى ، ووقت عبادتهم له وبعد عبادتهم له بقليل أو كثير ولا فى أى زمان إلى يوم القيامة ولذا جاء كل من الضر والنفع نكرة للدلالة على العموم ، وأما المضار التى تدفع عنهم والمنافع التى تجلب لهم فى الدنيا فهى داخلة فيما قدر الله تعالى لعباده فى الدنيا مؤمنهم وكافرهم مع اعتقادهم أنها من المسيح ـ عليه السلام ـ وأما فيما يتعلق بالآخرة التى هى دار الجزاء على الأعمال الدنيوية فقد ساق القرآن مشهداً من مشاهد يوم القيامة تبرأ المسيح فيه مما نسب إليه من ادعاء الألوهية لنفسه ولأمه فقال تعالى « وإذْ قال الله ياعيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أنْ أقول ما ليس لى بحق إنْ كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد»[1] .

---

(١) المائدة : ١١٦ ـ ١١٧ .

وعبر القرآن عن عدم الفائدة من وراء عبادة المسيح بنفى الملك الواقع على الضر والنفع فلم يقل « مالا يضركم ومالا ينفعكم » ؛ لأن المالك للشئ قادر علىالتصرف فيه بدفع الضر أو جلب النفع ، فيمكن أن يضر من يكفر به ويعصيه وأن ينفع من يعبده ويطيعه والمسيح لا يملك ولايقدر ولا يستطيع ، يقول الراغب « المُلك : الحق الدائم لله ، فلذلك قال « له الملك وله الحمد» [1] ، وقال « قل اللهم مالك مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »[2] فالمُلك ضبط الشئ المتصرف فيه بالحكم ، والمِلك كالجنس للمُلك فكل مُلك مِلك ، وليس كل مِلك مُلكاً » [3] .

ويمكن أن يقال : إن المسيح ــ عليه السلام ــ كان يقع منه ما يدل على الملك والتصرف كابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى ... ، وهذا من الأمور التى يتشبث بها عباده ، فكيف نفى الملك عنه ؟

وفى الجواب عن ذلك : أن الله تعالى قد أرسله إلى بنى اسرائيل واقتضت حكمته تعالى تاييده بالعديد من المعجزات الدالة على صدقه والتى منها هذه الأمور التى لاتقع إلا بأمر الله تعالى وغرادته وقدرته فالمسيح بذاته لا يستطيع أن يضر أحداً بمثل ما يضر به الله تعالى ولا أن ينفع أحداً بمثل ما ينفع به الله تعالى وأن كل ما يصدر عن البشر من المضار والمنافع فإنما هى بإقدار الله تعالى وتمكينه ، وهذا يدل على أن أمر المسيح مناف للربوبية ، لأن صفة الرب القدرة على كل شئ ولا يخرج مقدور عن قدرته [4] .

---

(١) التغابن : ١

(٢) ال عمران : ٢٦ .

(٣) المفردات للراغب (ملك) / ٧١٨ .

(٤) انظر الكشاف : ١/ ٦٣٥ وحاشية الشهاب ٣/٥٢٥ وروح المعانى ٤/ ٣٠٦ .

وقوله تعالى « لكم » متعلق ـ (لايملك) ولعل السر فى التعبير به هنا أن الملك المنفى الواقع على الضر والنفع خاص بهم ، أى لا يملك الضر والنفع لكم خاصة ؛ لأن الغرض من عبادتهم له واعتقادهم ألوهيته هو دفع الضر عنهم وجلب النفع لهم ، فلو حذف ، أمكن أن يتوهم أن الملك المنفى المسند إلى المسيح والواقع على الضر والنفع خاص بكل من لم يعبد المسيح ـ عليه السلام ـ ، ولتحديد المراد بالمسند إليه فى قوله « أتعبدون من دون الله » بأنه خاص بهم .

ويمكن أن يقال : لم وقع الملك المنفى المسند إلى المسيح على كل من الضر والنفع ؟

وفى الجواب عن ذلك يقال : منذ إدراك الإنسان لوجوده يسعى إلى تحقيق أمرين ، الأول : مابه تكون سعادته وسعادة من يعول دنيوياً وأخروياً ، وتتحقق السعادة الدنيوية بدفعه لأى ضر وجلبه لأى نفع وعند شعوره بالعجز عن ذلك يلجأ إلى الله الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وأما تحقيق السعادة الأخروية فتكون بالايمان بالله تعالى والعمل بكل ما أمر والابتعاد عن كل ما نهى ولعلك تلحظ أن الضر قد قدم على النفع « لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع : ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير » [1] وانتفاء الضر والنفع عن عيسى ـ عليه السلام ـ يستلزم انتفاءهما لله تعالى ، يقول البقاعى : « ولما نفى عنه ما ذكر تصريحاً وتلويحاً أثبته لنفسه المقدسة كذلك فقال « والله » أى والحال أن الملك الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى والكمال كله وهو « أى خاصة » السميع العليم » ، وهو وحده الضار النافع » [2] .

ويمكن أن يقال : لم ختمت الآية بقوله « والله هو السميع العليم » ؟

---

(١) تفسير أبى السعود ٢/٥٣ وانظر روح المعانى ٤/٣٠٦ .

(٢) نظم الدرر ٦/ ٢٥٧ .

وفي الجواب عن ذلك أن إشراك النصارى قد تضمن القول والاعتقاد فجاء ختم الآية بما يناسب ذلك حيث إن السمع يكون للأقوال والعلم يكون للاعتقاد[١] .

والواو في قوله تعالى « والله هو السميع العليم » واو الحال والجملة بعدها حالية وصاحب الحال الضمير في قوله « أتعبدون » وقد ربطت الواو الجملة الحالية بصاحبها ، وجئ بهذه الجملة الحالية لتوكيد الإنكار والتوبيخ وتقرير للإلزام والتبكيت والمعنى المراد : أتشركون بالله مالا يقدر على شئ من ضركم ونفعكم والحال أن الله تعالى هو المختص بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائفة وهو القادر على جميع المقدورات التى من جملتها أيضاً مضاركم ومنافعكم في الدنيا والآخرة [٢] .

ومن الثابت أن الله تعالى يسمع كل مسموع ويعلم كل ماتضمره القلوب وبذلك يكون ذكر هاتين الصفتين هنا أريد بهما لازمهما وهو الكناية عن المجازاة أى مجازاة كل إنسان بما قال وبما فعل كما قال أبو حيان « وفي الاخبار بهاتين الصفتين تهديد ووعيد على مايقولون ويعتقدون»[٣] .

ويضيف البقاعى « قرن بالسميع العليم دون البصير لارادة التهديد لمن عبد غيره ؛ لأن العبادة قول أو فعل ومن الفعل ما محله القلب وهو الاعتقاد ولا يدرك بالبصربل بالعلم » [٤] .

ولما كان المخاطبون بهذه الآية معتقدين مشاركة المسيح وأمه لله تعالى فى صفة الألوهية قصر القرآن السمع والعلم على الله تعالى وحده ونفاهما عن

---

(١) انظر البحر المحيط : ٣/٥٣٨ .

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٢/٥٢٣ وروح المعانى ٤/٣٠٦ ــ ٣٠٧ .

(٣) البحر المحيط : ٣/ ٥٣٨ .

(٤) نظم الدرر : ٦/٢٥٧ .

المسيح وأمه ، ومن انتفت عنه هاتين الصفتين لا يصلح لرتبة الألوهية فجملة القصر بمنزلة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية ، ففي هذا من الايجاز ما لا يخفى .

شدة تمسك أهل الضلال به

الصراع بين الحق والباطل أو بين الإيمان والكفر قديم ودائم ، وأن أهل الإيمان دائماً يتمسكون به ؛ لأن نور الإيمان قد ملأ قلوبهم فلا تزعزعه فتن أو أهواء أو مغريات .

وأما أهل الكفر ـ كعادتهم ـ فلم يقفوا عند التمسك به أو الاصرار عليه إنما يعملون بشتى الطرق والوسائل على نشره كلما سنحت لهم فرصة فيحاولون ارتداد أهل الإيمان عنه ، إما اعتقاداً منهم أنهم على الحق وغيرهم على الباطل ، وإما حقداً وحسداً لما تفضل الله تعالى به على المؤمنين ، وهذا مما لا تختص أمة دون أمة أو مكان دون مكان أو زمان دون زمان وإنما يوجد حيث يوجد إيمان وكفر ، ولذلك فإن ما كان من كفار مكة تجاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ليس غريباً ، فقد وقفوا في وجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك لكفه عن دعوته لمحاولة القضاء عليه وعلى دعوته ، ثم أقدموا على دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عبادة آلهتهم يوماً ويعبدون الله يوماً على جهة التناوب كشرط للإيمان به وقوبلت هذه الدعوة بالرفض ؛ لأن معنى ذلك الإقرار بأحقية الأصنام للعبادة وأحقيتها للألوهية ، يقول تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[1] ثم ترصدوا لأصحابه وأذاقوهم ألواناً من التعذيب ليردوهم عن دينهم الحق ووضح القرآن ذلك في قوله تعالى « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ وإنهم لكاذبون»[2] .

---

(١) الكافرون : ١ ـ ٦ .

(٢) العنكبوت : ١٢ .

و« أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى أن المشركين قالوا للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد » [١] بل إن سيدنا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ قد دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام[٢] ولا يخفى ما كان من سيدنا عمر قبل إسلامه تجاه سعيد بن زيد [٣] فجاء قول الله تعالى : « قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » [٤] بأسلوب الأمر فى قوله « قل » للرد على عبدة الأصنام ، يقول الرازى : « اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على عبدة الأصنام وهى مؤكدة لقوله تعالى قبل ذلك «قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » فقال « قل أندعو... » [٥] وجملة مقول القول فى قوله : «أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » فى محل نصب مفعول به ، وصدرت هذه الجملة بالاستفهام الانكارى التوبيخى الذى أريد به لن تكون منا عودة إلى الكفر مرة أخرى بعد أن مَنَّ الله تعالى بنور الإسلام وبنور الإيمان ، وفى هذا يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : « والاستفهام انكارى ينكر فيه المؤمنون على أنفسهم ان يأخذوا طريق هؤلاء القوم الضالين الذين ساقهم الضلال إلى هذا المصير المشئوم وأن يتخلوا عن هذا الطريق المستقيم الذى

---

(١) روح المعانى : ٥/ ٢٧٣ .

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٣/ ٦٨ وروح المعانى ٥/٢٧٣ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٧/٢٩٩ .

(٤) الأنعام : ٧١ .

(٥) مفاتيح الغيب : ١٣/٣١ ـ الأنعام : ٥٦ .

اقامهم الرسول عليه ليأخذوا واجهتهم فيه إلى رضوان الله وإلى جنات لهم فيها نعيم مقيم»[١] .

وعبر القرآن عن العبادة بالدعاء ؛ لأن الإنسان باعتبار أنه مخلوق فهو محتاج إلى الله فى كل لحظة وحين فى كل أموره الدينية والدنيوية ، وطلب الحاجة لا يكون إلا بالدعاء والتضرع الذى يمثل قمة العبودية ؛ لأن الإنسان يدرك أن له رباً خالقاً رازقاً قادراً عليماً به وبأحواله . وعلى الداعى أن يقدم بين يدى دعائه الثناء على الله بما هو أهله ، يقول تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» [٢] .

ولعل السر فى التعبير بالمضارع فى « أندعو » الدلالة على تجدد الإنكار وحدوثه أى أنه لن تكون منهم عبادة لغير الله تعالى أى تأييس الكفار من اتباع مادُعوا إليه وإسناد المضارع إلى واو الجماعة فى « أندعو » يدل على العموم فيشمل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومَنْ آمن به من المسلمين ، ولا يتصور عقلاً عودة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الشرك ولذا يمكن أن يحمل هذا على التغليب ، والمعنى أيليق بنا معشر المسلمين ذلك ؟ [٣] .

وقوله تعالى : « من دون الله » جار ومجرور ومضاف إليه ، والجار والمجرور متعلق بـــ « ندعو » والسر فى التعبير به كما قيل بيان حقارة الأصنام وأنها دون الله تعالى [٤] والمضارع المسند إلى واو الجماعة قد وقع على (ما) فهى فى محل نصب مفعول به ، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب .

---

(١) التفسير القرآنى : ٢/ ٢١٤ .

(٢) البقرة : ١٨٦ .

(٣) انظر روح المعانى : ٥/٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

(٤) انظر نظم الدرر : ٧/١٥٠ .

والتعبير عن الأصنام بـ (ما) وصلتها للدلالة على تحقيرها وأن حقارتها واضحة فى عدم نفعها لمن يقدم على عبادتها ، وعدم ضرها لمن يترك عبادتها كما قال ابن عاشور « والمراد بما لا ينفع ولا يضر الأصنام فإنها حجارة مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضر ولو كانت تستطيع الضرلأضرت بالمسلمين ، لانهم خلعوا عبادتها وسفهوا اتباعها وأعلنوا حقارتها ، فلما جعلوا عدم النفع ولا الضر علة لنفى عبادة الأصنام فقد كنوا بذلك عن عبادتهم النافع الضار وهو الله سبحانه » [1] .

وعبر القرآن عن النفع والضر بالمضارع الداخلة عليه (لا) النافية وذلك للدلالة على أن العجز ملازم للأصنام فى الدنيا والآخرة فهى ليست عاجزة فى وقت دون وقت ، أو فى زمن دون زمن ، إنما العجز مصاحب لها ولايقدم على عبادتها إلا من أصيب بخبل فى عقله .

وبانتفاء دوام جلب النفع ودفع الضر عن الأصنام يستلزم بالضرورة اسناده إلى الله تبارك وتعالى المالك لمقاليد السماوات والأرض ، وفى هذا مايدعو إلى عدم تخلى المسلم عن عقيدته ؛ لأنه على يقين بأنه على الحق ، وأن ما نسمعه ونشاهده من ارتداد بعض المسلمين ، فمرده إلى غياب الوعى الدينى لدى الكثير من الأُسر المسلمة ، واهمال المجتمع الاسلامى فى كثير من البلدان فى رعاية الأسر الفقيرة مما يعطى الفرصة للمبشرين بإيجاد ثغرة للدخول منها إلى قلوب أمثال هؤلاء ، بالإضافة إلى ما تطمح إليه نفوسهم الأمارة بالسوء ، وكذا الدور الذى يقوم به إبليس من تزيين الباطل حتى يبدو أمامهم كأنه حقيقة[2] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٧/ ٣٠٠ .

(٢) يقول تعالى على لسان إبليس « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » الإعراف : ١٦ ــ ١٧ .

ولو قال القرآن « مالا ينفعنا » دون الإتيان بما عطف عليه من قوله « ولا يضرنا » لأمكن أن يتوهم أن الأصنام لا تنفع ولكنها تضر ، ولما كان هذا غير مراد وأن القرآن أراد نفى الأمرين معاً جاء بقوله «ولايضرنا » معطوفاً عليه وذلك للدلالة على العموم .

ولعلك تلحظ أن القرآن قد قدم النفع على الضر ولعل السر فى هذا أن السياق الوارد قبل هذه الآية من أول السورة قد عدد الله تعالى فيه نعمه على خلقه فناسب هذا تقديم النفع حيث لايقدر على كل هذه النعم وغيرها إلا الله تعالى ليكون الكفار على يأس من اتباع حزب الله لهم[١]

والرجوع إلى الكفر بعد الإيمان من أعظم الأمور القبيحة المنكرة لمخالفتها للفطر السليمة حيث تعد انتكاسة كبيرة ، ولذا فالمرتد يكون فى حالة من التشتت والتمزق الفكرى والنفسى ؛ لأن نور الإيمان قد عمرّ القلب فإذا ماخرج هذا النور وحل الظلام محله فالفطرة لا تألف هذا الظلام ؛ لأن الألفة تكون بالتقاء نور الفطرة بنور الإيمان .

ثم يأتى قوله تعالى « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » معطوفاً على قوله تعالى «أندعو » داخلاً معه فى حيز الانكار والنفى أى « أندعو » و « أنرد » وذلك لبيان زيادة قبح حال الراجع إلى الكفر ، حيث لم يرد القرآن مطلق الرد فلو كان الأمر كذلك لقال « وأنرد » إنما أراد القرآن الرد وما تعلق به من قوله « على أعقابنا » ، و« إيثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغة وإيذاناً بأن الارتداد من غير

---

(١) انظر نظم الدرر : ٧/ ١٥٠ .

راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره » [١] وبناء الفعل « نرد » للمفعول وذلك للدلالة على أن المنكر الرد نفسه من أى رادٍ كان [٢]

ولم يقل القرآن « ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان» وإنما قال « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله لأن القرآن الكريم أراد تصوير حال وهيئة المرتد بصورة منفرة مذمومة وهى صورة من مضى قدماً لقصده مستقبلاً الطريق بوجهه ، وبعد وصوله إلى مراده سمع صوت الداعى أن عد إلى حيث كنت ، وكان عليه الثبات لوصوله إلى قصده ومراده ولكن آثر الرجوع ولكن بهيئة مخالفة للتى مضى بها حيث رجع بدبره وبمؤخر قدميه فكل من يشاهده يدرك أنه قد اصيب بخبل فى عقله ، فقوله تعالى « ونرد على أعقابنا » يعد مستعاراً منه والمستعار له حال وهيئة العائد إلى الكفر بعد الإيمان والعلاقة المشابهة فى العودة إلى الحالة الأولى التى كان عليها وهى مما لا شك فيه حالة مذمومة لا تدل على تفكر وتعقل .

يقول الرازى « .. يقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل إنه رجع إلى خلف ورجع على عقبيه ورجع القهقرى ، والسبب فيه أن الأصل فى الإنسان هو الجهل ثم إذ ترقى وتكامل حصل له العلم « قال تعالى » « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة [النحل : ٧٨] فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة فلهذا السبب يقال فلان رد على عقبيه » [٣] .

وأسندت الهداية إلى الله ووقعت على الضمير (نا) والمعبر به عن المدعوين إلى الكفر بعد الإيمان ، وهى تنقسم إلى قسمين :

---

(١) تفسير أبى السعود ٦٩/٣ وانظر روح المعانى ٢٧٤/٥ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٥١/٧ .

(٣) مفاتيح الغيب ١٣/ ٣١ وانظر حاشية زاده ٢/ ١٧٦ .

١ـ هداية بالفطرة وهى ما تتفق فيها جميع الخلائق والواردة فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » [١].

٢ـ هداية بالتوفيق وهى التى ترجع لاختيار العبد بعد بيان الله تعالى الإيمان والكفر والخير والشر والهدى والضلال على لسان أنبيائه ورسله والتى يدل عليها قول الله تبارك وتعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » [٢] .

ولعل القسم الثانى هو الذى يتسق مع إسناد الهداية هنا إلى الله تعالى فقد علم الله تعالى قبولهم للهداية فوفقهم إليها .

وبعد أن صور القرآن صورة العائد إلى الكفر بعد الإيمان بصورة استعارية رائعة ، انتقل إلى البيان عنه أيضاً بصورة أخرى تشبيهية فى قوله تعالى « كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا » فالكاف كما يرى الزمخشرى واقعة فى محل نصب على الحال من الضمير فى « نرد على أعقابنا » حيث قال : « فإن قلت فما محل الكاف فى قوله « كالذى استهوته » ؟ قلت النصب على الحال من الضمير فى « نرد على أعقابنا» أى أننكفى مشبهين من استهوته » [٣] أو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف كما ذكر أبو حيان والذى رجح رأى الزمخشرى حيث قال « وموضع »

---

(١) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٢) الزخرف : ٣٦ .

(٣) الكشاف : ٢/ ٢٨ .

كالذى نصب قيل على أنه نعت لمصدر محذوف أى : رداً مثل رد الذى ، والأحسن أن يكون حالاً أى كائنين كالذى » [١].

فالمشبه ـ كما هو واضح ـ حال وهيئة من رجع إلى الكفر بعد الإيمان والمشبه به حال وهيئة من تسلطت عليه الشياطين بكل ما تملك من وسائل وأدوات ففتح عقله وقلبه لو ساوسها وهواجسها ، وانساق وراءها فلازمته حتى صار دمية فى أيديها ، ولم تأخذه إلى الأماكن الآمنة إنما أخذته فى دروب الأرض ومسالكها الوعرة وهو فى هذه الحالة السيئة التى تكون نتيجتها الهلاك فى حيرة وفى تخبط لايدرى ماذا يفعل شاهده أصحاب مخلصون أشفقوا عليه فدعوه إلى ترك ماهو فيه والرجوع إليهم ليكتب له الأمان من الهلاك فلم يجبهم حتى لقى حتفه .

وصورة المشبه به وهى استهواء الشياطين للإنسان من الصور التى تثير فى النفس تساؤلاً مؤداه هل تقوم الشياطين بالتسلط على الإنسن حتى تهلكه ؟ هذا التساؤل دعا الزمخشرى إلى القول بأن هذا التشبيه مبنى على زعامات العرب فقال : « كالذى استهوته الشياطين » كالذى ذهبت به مردة الجن والغيلان ... وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده أن الجن تستهوى الإنسان والغيلان تستولى عليه كقوله «كالذى يتخطبه الشيطان من المس » [البقرة : ٢٧٥] فشبه الضال عن طريق الاسلام بالتابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه فلا يلتفت إليهم » [٢].

والألوسى يرى أن هذا ليس مبنياً على ما تزعمه العرب فقال : « حيث شبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين

---

(١) البحر المحيط ١٥٨/٤ ، وانظر روح المعانى ٢٧٤/٥ .

(٢) الكشاف : ٢/ ٢٨ .

فى المهمه وأضلته بعد ما كان على الجادة المستقيمة ، وليس هذا مبنياً على زعمات العرب كما زعم من استهوته الشياطين » [١]

وأما شيخ زاده فرأى أن هذا ليس زعماً وإنما هو حقيقة عند العرب والعجم معاً فقال : «وصاحب الكشاف لما انكر الجن واستيلاءها على بعض الأناسى بقدرة الله تعالى جعل الأوصاف المعتبرة فى جانب المشبه به مبنية على ما تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوى الإنسان وتستولى عليه والحال أنه مما يقول به العرب والعجم وأكثر أهل الملل ويدعى مشاهدته كثير من الثقات وليس لمنكره دليل يعول عليه بل هو مما استهوته الشياطين فى مهامه الضلال الفلسفى « حيران له أصحاب » من أهل السنة يدعونه إلى الهدى الشرعى قائلين له إئتنا وهو يستمر على تعسفه لا يلوى عليهم ولا يلتفت إليهم » [٢]

والاستهواء : طلب الهوى ومادة (هوى) كما ذكر ابن فارس أصل صحيح يدل على خلو وسقوط أصله الهواء بين السماء والأرض ، سمّى لخلوه وكل خال هواء وأيضاً يقال هوى الشئ سقط ، والهَوىُ ذهاب فى انحدار والهُوىُ فى الارتفاع وأما الهوىَ هوى النفس فمن المعنيين جميعاً ؛ لأنه خال من كل خير [٣].

ويذكر الراغب أن « الهوى : ميل النفس إلى الشهوة .. وقيل سمى بذلك لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية .. وقال كالذى استهوته الشياطين ، أى حملته على اتباع الهوى » [٤].

---

(١) روح المعانى : ٥/ ٢٧٤ .

(٢) حاشية زاده ٢/ ١٧٧ .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ص / ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ .

(٤) المفردات للراغب (هوى) ص / ٧٩٦ ــ ٧٩٧ .

وفى لسان العرب « قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان الشئ وغلبته على قلبه .. واستهوته الشياطين : ذهبت بهواه وعقله .. وقيل استهوته : استهامته وحيرته وقيل زينت الشياطين له هواه » [١] .

ومن خلال هذا يتبين أن الشياطين كان لها اكبر الأثر فيما يحدث للإنسان من ردة ، ولذا أسند القرآن الاستهواء إلى الشياطين ، وأن العلاقة بين الإنسان والشياطين ليست إلا علاقة بغض وكراهية من الثانى للأول مردها إلى ادعاء ابليس أن آدم عليه السلام ـ كان سبباً فى طرده من رحمة الله وبما أن الشياطين ليس لها مسلك واحد فى تزيين المعصية للإنسان وإنما لها مسالك متنوعة ومتعددة عبر القرآن بقوله فى الأرض لاتساعها ووعورتها .

ولعل التعبير بقوله تعالى « حيران » يصور ما يكون عليه حال المرتد أدق تصوير وأبينه فشأن المرتد يكون موزع الفكر والخاطر بين نور الفطرة ، ونور الإيمان الذى بقيت منه بقية ، وبين ميل النفس وشهواتها ، واستهواء الشياطين التى تجذبه إلى أوديتها المضللة المظلمة .

ولعلك تلحظ التعبير عن المسند إليه بالجمع فى قول « الشياطين وذلك للدلالة على تعاقبها على الإنسان وتواردها عليه واحداً تلو الآخر فلا تتركه لحظة من اللحظات للعودة إلى نور الإيمان وأنه كلما همت نفسه وتاقت إلى نور الإيمان اجتمعت عليه لتزين له الباطل فى صورة الحق والضلال فى صورة الهدى ومن لطف الله تعالى ورحمته أنه لايترك مثل هذا الإنسان مُسيطراً عليه من قبل الشياطين ، ولذلك يأتى قوله تعالى » له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا » مقابلاً لطلب استهواء الشياطين له ، فقصر الأصحاب عليه ، ونكر كلمة أصحاب للدلالة على أنهم ليسوا كأى أصحاب فقد يرى الكثير من الناس صاحبه وهو يرد موارد الهلاك ولا ينبهه ولا يأخذ بيده إنما هؤلاء الأصحاب قد أخذتهم الشفقة عليه حين

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٧٢٨/٦ .

شاهدوه فى مثل هذا الموقف الذى تكون عاقبته الهلاك ، لاشك أنهم أصحاب عظماء إنَّ هؤلاء الأصحاب كما قيل « هم هذه المفاهيم والحقائق التى أنست بها نفسه فى جو الإيمان الذى عرفه بقيت تهتف به إلى أن عد إلى محيط الصواب وأذهب عن نفسك استهواء الشياطين ... صوت الضمير أو صوت الفطرة أو تلك الاشعاعات من نور الإيمان التى عرفها حين آمن » (١) .

ولعل السر فى التعبير بأسلوب الأمر فى قوله « ائتنا » استشعار الأصحاب خطر ماهو فيه ، وأن عاقبته إذا تمادى فى طريقه لن تكون محمودة ، وأن هؤلاء الأصحاب على الطريق المستقيم .

ولم يرد فى سياق الآية إجابة المستهوى لأصوات الداعين وإن دل هذا فإنما يدل على أن عاقبة الاستهواء كانت الخسران والهلاك .

ثم يأتى قوله تعالى « قل إنَّ هدى الله هو الهدى » بـ « تكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ، أو لأن ما سبق للزجر عن الشرك ، وهذا حث على الإسلام ، وهو توطئة لما بعده فإنَّ اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب امتثال الأوامر بعده » (٢) .

ويمكن أن يكون السر فى إعادة الأمر بـ « قل » هو أن أهل الكفر قد زعموا أنهم على الحق وأن المسلمين على الباطل فقاموا بدعوة المسلمين إلى الردة وأن مثل هذه الدعوة تكون مدعاة إلى وقوع الشك فى النفوس فأراد الله تعالى تثبيت المسلمين ليتمسكوا به ولا يميلوا إلى تلك الأصوات الداعية لهم إلى الردة ، ومقول القول « إنَّ هدى الله هو الهدى » ، قد اشتمل على العديد من المؤكدات وهى (إنَّ) وأسلوب القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل ، والسر فى هذه المؤكدات هو مراعاة حال المخاطبين بأسلوب الأمر وهم أهل الشرك

---

(١) التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى / ٩٣ .

(٢) تفسير أبى السعود ٣/ ٦٩ ، وانظر روح المعانى ٥/٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

الذين ينكرون أن الإسلام هو الهدى [١] والقصر مفاد من تعريف الطرفين أو ضمير الفصل [٢] .

والملاحظ أن القرآن قد فصل بين « قل » فى بداية الآية و « قل » فى قوله تعالى « قل إن هدى الله هو الهدى » لسر بلاغي هو كمال الاتصال لاتفاقهما فى الانشائية لفظاً ومعنى .

والواو فى قوله تعالى « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » للعطف والمعطوف عليه مقول القول فى قوله » قل إن هدى هو الهدى » والتقدير « قل إن هدى الله هو الهدى » وقل « أمرنا لنسلم لرب العالمين » يقول الزمخشرى » فإن قلت : ما محل (أمرنا) ؟ قلت النصب عطفاً على محل قوله « إن هدى الله هو الهدى » على أنهما مقولان كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم فإن قلت ما موقع اللام فى (لنسلم) ؟ قلت هى تعليل للأمر بمعنى أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم » [٣] .

ويضيف إلى معنى اللام غير التعليل أبو السعود أنها ترد بمعنى الباء فيقول « واللام فى» لنسلم لرب العالمين » لتعليل الأمر المحكى وتعيين ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما فى قوله تعالى « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا » إلا أنه كأنه قيل : امرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم وقيل هى بمعنى الباء أى أمرنا بأن نسلم » [٤] .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٧/ ٣٠٣ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٤/ ١٢٩ .

(٣) الكشاف ٢/٢٩ وانظر روح المعانى ٥/ ٢٧٦ .

(٤) تفسير أبى السعود ٣/ ٦٩ ــ ٧٠ ، وانظر حاشية الشهاب ٤/ ١٢٩ .

ولم يقل القرآن « وأسلموا » وإنما قال « وأمرنا لنسلم » ،ولعل السر فى هذا الدلالة على أن إسلامهم قد تحقق ووقع فكيف يرجعوا إلى الكفر أو الشرك مرة أخرى بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ؟

واسناد الفعل إلى الضمير (نا) فى (أمرنا) يشير إلى أن المأمور به ليس مطلوباً من الرسول وأصحابه إنما هو مطلوب من كل مخاطب من أهل الشرك وغيرهم .

ولم يقل القرآن أيضاً « وأسلموا لله » أو « أمرنا بأن نسلم لله » وإنما قال « لرب العالمين» وذلك للدلالة على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة دون غيره لأنه رب العالمين ، كما قال أبو السعود » والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به»[1] .

---

(١) تفسير أبى السعود ٣/٧٠٠٧٩ وانظر روح المعانى ٥/٢٧٦ .

استئثار الله بعلم الغيب

تحمل دعوة الأنبياء والرسل وعداً ووعيداً وذلك تبعاً لتنوع النفوس البشرية ، وقد كان من شأن أهل مكة حينما دعاهم الرسول « صلى الله عليه وسلم » أن أصروا على كفرهم فرغبهم فى الإيمان وذلك بتحقيق وعد الله تعالى ، فتمسكوا بباطلهم فهددهم بالعذاب فازدادوا عناداً واصراراً وذلك بسؤالهم عن وقت نزوله « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [1] .

فقوله تعالى « قل إنما علمها عند ربى » وكذا قوله « قل إنما علمها عند الله » جاء جواباً لسؤالهم ؛ لأنهم قد ظنوا أن العلم بالغيب والذى منه القيامة من خصوصيات نبوته ، فألحوا فى السؤال ، فأمره الله تعالى بقوله : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون.» [2] .

فالسر فى إعادة الأمر هنا فى قوله « قل لا أملك لنفسى يكون على النحو التالى :

١ــ أن الله تعالى أراد أن يبين لهم أنه بشر لا يملك لنفسه أمراً من الأمور الغيبية وبخاصة فيما يتصل بأمر الساعة ، وأن وقوفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على بعض الأمور الغيبية كالمعجزات مما يكون دليلاً على صدقه فى دعوى الرسالة إنما هى من الله تعالى ، يقول الزمخشرى » هو إظهار للعبودية

---

(١) الأعراف : ١٨٧ .

(٢) الأعراف : ١٨٨ .

والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب » [١] ويقول أبو السعود « إعادة الأمر لاظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى » [٢] .

٢ـ أن « أهل مكة قالوا يامحمد ألا يخبرك ربك بالرخص والغلاء حتى نشترى فنربح وبالارض التى تجدب لنرتحل إلى الأرض الخصبة فأنزل الله الآية » [٣] .

٣ـ أن أسلوب الأمر جئ به هنا للرد على زعيم المنافقين وذلك أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لما رجع من غزوة بنى المصطلق جاءت ريح فى الطريق ففرت الدواب منها ، فأخبر النبى بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ للمنافقين ، وقال انظروا أين ناقتى ؟ فقال عبد الله بن أبى مع قومه : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولايعرف أين ناقته ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنَّ ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتى فى هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال فأنزل الله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولاضراً » [٤] .

فإسناد الأمر فى قوله « قل » إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للدلالة على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاينطق عن الهوى ، وإنما هو ملتزم بالصدق والحق سواء فى تبليغه لدعوة ربه ، أو فى رده على سؤال سائل ، أو انكار منكر .

---

(١) الكشاف ١٣٥/٢ وانظر البحر المحيط ٤٣٦/٤ .

(٢) تفسير أبى السعود ٢٨١/٣ وانظر روح المعانى للألوسى ١٩٧/٦ .

(٣) مفاتيح الغيب ١٥/ ٨٧ وانظر البحر المحيط ٤٣٦/٤ .

(٤) انظر مفاتيح الغيب ٨٧/١٥ .

ومقول القول قد وقع فى محل نصب لأنه مفعول به جئ به لبيان نفي الرسول عن نفسه ملك نوع من النفع أو الضر ، وعبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه بنفى ملك النفع والضر لنفسه وذلك للدلالة على أن كل ما جاءهم به من الدعوة إلى الإيمان وترك الكفر والشرك وكل ما يتصل بالوعد والوعيد والخير والشر والسعة والتضييق فى الرزق إنما هو من الله تعالى هو لا يقدر على شئ منه .

ولعل السر فى التعبير بقوله « لنفسى » أن نفى ملك النفع والضر عن النفس يلازمه نفى ملكهما للغير أى لا يملك لنفسه ولا يملك للسائلين ولايملك لغير السائلين ؛ ولأن حب الانسان لنفسه فطرى فكل مايراه نافعاً لنفسه يدخره لها ، وكل ما يراه ضارا يصرفه عنها ، ولايتجرد الإنسان من حبه لنفسه إلا بكمال الإيمان ، ويعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الأعلى والقدوة فى حبه للناس كما يحب لنفسه فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصاً على إيمان قومه ليجنبهم عقاب الله تعالى فى الآخرة وهذا لا ينبع إلا من حبه لهم بتحقيق الإيمان .

وأوقع الفعل (أملك) على النفع والضر وذلك للدلالة على تجرده ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما اعتقدوا نسبته إليه واختصاصه به من حيث هو نبى ورسول يعلم الغيوب ، وكذا معرفة السنة المخصبة من المجدبة ، ورخص الأسعار وغلاتها ... وأن هذه الأمور وغيرها مختصة بالله سبحانه وتعالى ، بالإضافة إلى أن كل ما يتصل بسعادة الإنسان وشقائه فى الدنيا والآخرة لا يخرج عن هذين الأمرين وهما النفع والضر ؛ ولذا جاء كل منهما نكرة وذلك للدلالة على العموم ، وأن ما ذكره العلامة الرازى فى المراد بالنفع والضر هنا إنما يحمل على سبيل المثال ـ فى وجهة نظرى ـ وليس الحصر يقول الرازى » والمراد بالنفع تملك الأموال وغيرها والمراد بالضر وقت القحط والأمراض وغيرها ...

(لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً) فيما يتصل بعلم الغيب والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » [١] وجاء الضر معطوفاً على النفع وذلك إشارة إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايملك أى شئ ولو كان من السلبيات أى أنه لو صح منه العزم على أن يضر نفسه ما استطاع أن يصل إلى شئ من ذلك إلا ماشاء الله ، وهذا أبلغ فى وصف الإنسان ـ ولو كان نبياً ـ بالعجز وقصور يده عن أن يبلغ أى شئ إلا ما قدر الله له ، ولو كان ذلك الشئ مما يحسب الإنسان أنه ملك خاص له لا ينازعه فيه أحد مما لا تنزع إليه النفوس ولا ترغب فيه كطلب ما يضر من الأمور وهو شئ مقدور عليه بأيسر جهد [٢] .

ويلاحظ أن القرآن « قدم هنا النفع على الضر ؛ لأنه تقدم (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل ...) فقدم الهداية على الضلال وبعده (لاستكثرت من الخير وما مسنى (لسوء) فناسب تقديم النفع فناسب تقديم النفع»[٣] ولا يخفى ما بين النفع والضر من الطباق .

ولما كان المخاطب بذلك هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى اقتضت حكمة الله تعالى تأييده بالعديد من المعجزات التى من جملتها اطلاعه على بعض الأمور الغيبية جاء هذا الاستثناء « إلا ماشاء الله » يقول البقاعى : « ولما كان من المعلوم بل المشاهد أن كل حيوان يضر وينفع أعلَمَ أن ذلك إنما هو بالله فقال « إلا ماشاء الله » أى الذى له الأمر كله ولا أمر لأحد سواه أن يقدرنى عليه » [٤] .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥/٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) التفسير القرآنى للقرآن ٣/ ٥٣٥ بتصرف .

(٣) البحر المحيط ٤/ ٤٣٦ وانظر ورح المعانى ٦/١٩٨ .

(٤) نظم الدرر : ٨/١٨٧ .

واختلف فى الاستثناء أمتصل أم منقطع ، ذكر أبو السعود الوجهين ورجح الانقطاع حيث قال : « إلا ماشاء الله » أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه ويقدرنى عليه ، أو لكن ماشاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع ، وهذا ابلغ فى إظهار العجز » [١] .

ويرجح أبو حيان القول بالاتصال [٢] ورجح الشهاب الاتصال حيث قال فى تعقيبه على كلام البيضاوى : « وقوله (إلا ماشاء الله » من ذلك فيلهمنى إياه ويوفقنى له ، إشارة إلى أن الاستثناء متصل لا منقطع كما قيل ، قال النحرير هو استثناء متصل أو منقطع واتصاله بالتأويل ، والتأويل ما اشار إليه المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ وفى البحر الاستثناء متصل أى إلا ماشاء الله من تمكينى منه فإنى أملكه بمشيئته تعالى ، وقيل الظاهر الانقطاع ؛ لأن المالكية بمعنى القدرة ؛ لأن ما يدل على نفى خلق الأعمال يدل على نفى وقوعها إلا أن يقال : إنه بناء على الظاهر ، وفيه نظر » [٣] .

وقد جاء عدم ملك الرسول لشئ من النفع والضر إلا بمشيئة الله تعالى فى سياق القصر بالنفى والاستثناء وذلك للمبالغة فى توكيد ذلك ؛ لأن المخاطبين بذلك يعتقدون فيه العلم بشئ من ذلك ؛ لأنه أراد أن يقول لهم أنا مبلغ رسالة ربى .

فالمقصور ملك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنفع والضر والمقصور عليه مشيئة الله تعالى وإرادته ، فقد قصر ملك الرسول للنفع والضر على مشيئة الله تعالى أى أثبت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملك النفع والضر على مشيئة الله ونفى عنه ملك النفع والضر من ذاته هو .

---

(١) تفسير أبى السعود ٣/ ٢٨١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤/ ٤٣٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٤/ ٤١٦ وانظر روح المعانى ٦/ ١٩٧ .

فالمستثنى منه نفي ملكه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنفع والضر لنفسه ولغيره ، والمستثنى : ملكه لشئ من النفع والضر بمشيئة الله تعالى وإرادته ، إذن حمل الاستثناء على الاتصال يعد الأنسب بالسياق والمقام .

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يقول لهم إن هناك فرقاً بين الألوهية والرسالة ، وأن ملك النفع والضر والقدرة على إيصالهما للمخلوقات إنما هذا مختص بالله تعالى ، وأن الرسول إنما هو مبلغ رسالة ربه .

وعلم الغيب سابق على جلب النفع ودفع الضر ؛ لأن الجاهل بما هو مغيب عنه لا يصل إلى الخير ولا يدفع الضر ، وقد كان الرسول ـ قبل البعثة مشهوراً بالصادق الأمين ، وحيث لم يؤثر عنه بعد البعثة الادعاء بعلم الغيب جاءت الواو في قوله تعالى « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » عاطفة لما بعدها على مقول القول ، لأن ما بعدها من جملة ما أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم » أن يقوله لهم يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : «وهذا مثل واضح شاهد لا يدفع على أن النبي لا يعلم الغيب إذ لو كان عنده من علم الغيب شئ لعرف عواقب الأمور قبل أن تجئ ولما اتجه إلى أمر تسوء عاقبته لكان كل متجهه دائماً إلى ما تحمد عاقبته وتعظم ثمرته فمثلاً لو كان يعلم النبي أمر الغيب شيئاً لما عرض نفسه على ثقيف قبل الهجرة .... ولو كان يعلم الغيب لما أذن للمنافقين الذين جاءوا بأعذار كاذبة للتخلف عن غزوة تبوك »[1] .

ولما كان الاستكثار من الخير مبنياً على علم الغيب ؛ لأن العالم بالغيب يدرك الخير فيجلبه لنفسه ، ويدرك السوء[2] فيدفعه عنها ورسول الله ـ صلى

---

(١) التفسير القرآني ٣/د٥٣٥ .

(٢) وأما السوء فقال عنه الراغب «كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخوف من زوال مال وجاه وفقد حميم » الراغب (سوأ ص / ٣٦٨ (سوأ)) .

الله عليه وسلم ـ لا يعلم من ذلك شيئاً جاء علمه بالغيب فى سياق الشرط بـ (لو) الدالة على امتناع حصول الجواب لامتناع وقوع الشرط ، وجواب (لو) « لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء » فمس السوء جاء معطوفاً على الاستكثار من الخير داخل معه فى الجواب ؛ لأن الاستكثار من الخير لو شابته شائبة سوء ولو كانت هذه الشائبة يسيرة لم يكن خيراً خالصاً؛ ولأن ذكر مس السوء يدل على احاطة العلم بالأمرين معاً ، يقول البقاعى « ولما كان الضر لا يحتمل منه شئ قال » (وما مسنى السوء) « أى هذا الجنس باقامة الموانع له عنى لأن من لازم احاطة العلم شمول القدرة » [1] والسوء منه ما يمكن دفعه ومنه مالايمكن دفعه ، كما قال أبو السعود « أى السوء الذى يمكن التقصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لاسوء ما فإن منه مالا مدفع له » [2] .

ويلاحظ أن القرآن قد « قدم ذكر الخير على ذكر السوء لمناسبة ما قبل حيث قدم فيه ذكر النفع على ذكر الضر وسلك فى ذكرهما هناك كذلك مسلك الترقى على ماقيل فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع » [3] .

وجاء ختام الآية الكريمة متمماً لما بدأت به من تحديد الفرق بين الألوهية والرسالة ، ومؤكداً أيضا لهذه الحقيقة التى بدأت بها الآية ؛ لأن نفى الرسول عن نفسه ملك النفع والضر ، ونفى الغيب يستلزم بالضرورة إسناد ذلك إلى الله تبارك وتعالى ، يقول البقاعى » ولما بين أن علم الغيب رتبة الاله ختم الآية ببيان رتبته فقال قالباً ما ادعوه فيه من الجنون ... وكذا مالزم من إلزامهم له بعلم الساعة من أنه يكون إلها « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » [4] .

---

(١) نظم الدرر ٨/١٨٨ .

(٢) تفسير أبى السعود ٣/ ٢٨١ .

(٣) روح المعانى ٩/١٩٨ .

(٤) نظم الدرر ٨/١٨٨ وانظر البحر المحيط ٤/ ٤٣١ .

ولما كانت الآية الكريمة فى خطاب القرآن لأهل الشرك الزاعمين معرفة الرسول للغيب جاء بيان القرآن موضحاً لرتبة الرسالة فى سياق القصر الذى طريقه النفى والاستثناء أى ما أن إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون حيث قصر الرسول نفسه على صفتى الانذار والبشارة ونفى عن نفسه ملك النفع والضر وعلم الغيب ، فأسلوب القصر يعد توكيداً على توكيد ؛ لأن جملة القصر بمنزلة جملتين احداهما مثبتة والثانية منفية .

ويمكن أن يقال : بم يتعلق قوله تعالى « لقوم يؤمنون » ؟ وفى الجواب عن ذلك يرى الزمخشرى أنه متعلق بالنذير والبشير معاً ويجوز تعلقه بالبشير ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفاً [1] ، والسر فى حذفه طهارة اللسان عن ذكره [2] لأن مثل هؤلاء لا يجوز ذكرهم .

ويمكن أن يقال : لم بدأ بالنذارة واخر البشارة ؟

وفى الجواب عن ذلك قيل « وبدأ بالنذارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفاراً إما مشركوا قريش وإما اليهود فكان الاهتمام بذكر الوصف من قوله « إن أنا إلا نذير » آكد وأولى بالتقديم»[3] .

وجاء ختام الآية بقول « لقوم يؤمنون » ؛ لأن الخطاب هنا للكافرين الذين طلب منهم المسارعة بالإيمان قبل أن يأتى أجلهم فيحل عليهم غضب الله .

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٣٦ وانظر تفسير أبى السعود ٢٨٢/٣ والبحر المحيط ٤٣٧/٤ ، وحاشية الشهاب ٤١٦/٤ ــ ٤١٧ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٤١٧/٤ وروح المعانى ٢٠٠/٦ .

(٣) البحر المحيط ٤/ ٤٣٧ وانظر روح المعانى ٢٠٠/٦ .

وجاء استثناء الله تعالى بعلم الغيب أيضاً فى قوله تعالى :

« قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمه » أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » [١] .

فأسلوب الأمر فى قوله تعالى « قل » جاء رداً على كفار مكة الذين حكى الله تعالى قولهم فى قوله تعالى « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » [٢] وفى هذا يقول شيخ زاده : «من جملة شبه منكرى النبوة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما هددهم بنزول العذاب ومرَّ زمان ولم يظهر ذلك العذاب قالوا له متى هذا الوعد ؟ واحتجوا بعدم ظهوره على حسب القدح فى نبوته ، فإن معنى الاستفهام فى (متى) الاستعجال بمعنى طلب العجل والمقصود من هذا الاستعجال هو استبعاد الموعود وأنه مما لايكون وأنه يستهزئ به فأمره تعالى بأن يجيب عن هذه الشبهة بجواب يحسم مادة الإشكال فقال « قل لا أملك» [٣] .

فأسلوب الأمر فى قوله « قل » جئ به « لما التمسوا تعجيل العذاب أو تعجيل الساعة أمره أن يقول لهم ليس ذلك إلى بل ذلك إلى الله تعالى » [٤] .

والناظر فى هذه الآية والتى وردت فى سورة الأعراف .

يلاحظ أن بين الآيتين اتفاقاً من قوله تعالى « قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله » باستثناء تقديم النفع على الضر فى سورة الأعراف وتأخيره فى هذه الآية .

والسر فى هذا أن آية الأعراف تقدمها قوله تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى » وبعده (قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر

---

(١) يونس : ٤٩ .

(٢) يونس : ٤٨ .

(٣) حاشية زاده ٣/١٨ وانظر حاشية الشهاب ٥/ ٩٥ .

(٤) البحر المحيط ٥/ ١٦٥ وانظر نظم الدرر ٩/١٢٤ .

الناس لا يعلمون) ويظهر من هذا أنهم ظنوا أنه عالم بالساعة فطلبوا تعريفهم بها ومماالاشك فيه أن العلم بالشئ فيه نفع لصاحبه فقدم النفع فى الأعراف .

وأما تأخيره فى يونس وتقديم الضر عليه فمرده إلى أنهم طلبوا تعجيل العذاب استهانةً وتكذيباً ولم يعلموا ما فى مطلبهم من المحنة والمضرة فقدم الضر وأخر النفع وهذا مما فهم مما قاله الخطيب الإسكافى [1] .

---

(١) يقول الخطيب الاسكافى « للسائل أن يسأل عن الآيتين وتقديم النفع على الضر فى الأولى وتأخيره عنه فى الأخرى وهل ذلك لفائدة أوجبت فى الاختيار تقدم المقدم وتأخير المؤخر . والجواب أن يقال : إنَّ الأولى بعد قوله « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى » وبعده « قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فكان معنى قوله « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً » لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب بها إلا ما ملكنيه الله فلا أملك إلا ما ملكت ولا أعلم إلا ما علمت والذى تسألون عنه وأنا لا أعلم منها ماهو أقرب إلى رجم الظنون فكيف ما يخص به علام الغيوب ولو علمت الغيب لاستكثرت فى السنة المخصبة مايدفع كَلَب المجد بَه وقِّيل لاستكثرت من العمل الصالح الذى اتحقق أنه أرفع عند الله تعالى درجة ؛ لأن من علم الغيب وعرف الأفضل عند الله لم يتركه إلى ما هو دونه ، وقوله « ومامسنى السوء » أى ما بى من جنون كما زعم المشركون وقيل الفقر لاستكثارى من الخير الذى يتدارك به الفقر عند شدة الزمان . وأما الآية فى سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى وقبلها « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على مايفعلون » [يونس ٤٦] أى إن أريناك بعض مانتوعد هؤلاء الكفار من العذاب فى عاجل الدنيا حتى تراه نازلاً بهم فى حياتك أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم فإن ذلك لا يفوتهم ؛ لأن مرجعهم إلى حيث يجازى فيه العباد ولا يملك بعضهم أمر بعض ، ويقول الكفار : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » قل لا أملك لنفسى ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أدفع عنكم سوء العقاب كما « لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله » أن يملكنيه منهما فتقديم ضر على نفع فى هذه الآية بخروجها على ذكر العذاب الذى قال الله تعالى فيه بعدها « أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون» . درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى ص / ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وكما ذكر فى الأعرف أن نفى ملك الضر والنفع عن النفس يستلزم نفيه عن الغير .

ونفى ملك النفع من الأمور الواضحة ، لأن من طبيعة الإنسان العمل على جلب النفع لنفسه لكن نفى ملك الضر من الأمور المثيرة للتساؤل القائل : كيف يملك الضر لنفسه ويسوقه إليها وهل هذا ممكن من إنسان فضلاً عن النبى الكريم ؟ وفى الجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أن الله تبارك وتعالى أراد أن يوضح لنا أنه لا سلطان لأحد من خلقه مع سلطانه ولو كان ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه لو حاول أحد جلب الضر لنفسه ما قدر على ذلك ؛ لأن ذلك لله وحده [١] .

ومن الممكن الاكتفاء بذكر الضر هنا ؛ لأنه المناسب للغرض المسوق له الكلام دون حاجة إلى ذكر النفع بعده ، ولعل السر فى ذكر النفع : عدم التوهم بإرادة نفى الضر وأنه يملك القدرة على النفع ، وهذا ليس مراد إنما المراد نفى الأمرين معاً لإرادة التعميم ، يقول الشهاب : « وذكر النفع للتعميم إذ المعنى لا أملك لنفسى شيئاً ، وقيل : أنه استطرادىّ لئلا يتوهم اختصاصه بالضر » [٢] .

ويتضح من خلال ما ذكر القرآن من نفى دفع الضر عن النفس وجلبه لها تعليم الناس عدم الخوض فيما لا دراية لهم به ، وعدم التقول على الناس بالباطل ، ومن باب أولى عدم التقول على الله تعالى بما لم يرد عنه .

ويمكن أن يقال : إن وجود تشابه بين آيتى الأعراف ويونس يدعو إلى القول بالتكرار فى القرآن ، ويندفع هذا القول بما بين الآيتين من التنوع فى

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن ١٠٢٧/٧ .

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٥٩ .

التعبير ، فقد تقدم النفع على الضر فى الأعراف ، وتأخر وتقدم عليه الضر فى يونس ، وأيضاً فى الأعراف جاء قوله تعالى « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » بعد نفى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ملك النفع والضر عن نفسه ، وفى يونس قال « لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ويضاف إلى هذا أيضاً : توكيد هذه الحقيقة وهى أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع ما خصه الله تعالى من شرف النبوة والرسالة الخاتمة لا يصح أن يضفى على نفسه ما يخرجه عن كونه بشراً يبلغ أمر ربه .

وبعد أن تبرى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من نفى ملك الضر والنفع لنفسه ولهم ... إلا ما أطلعه الله عليه ، أراد أيضاً أن يعلمهم أن الأمر الذى استعجلوه وهو نزول العذاب المتوعد به له زمن ، وتابع لما قدر الله تعالى لكل أمة من العمر فليس معنى استعجالهم للعذاب حلوله بهم ؛ لأنهم قد استعجلوا على سبيل السخرية به ، فإنقضاء الأجل يحل بالأمة وبأفرادها الجزاء على العمل فقال « لكل أمة أجل » يقول الزمخشرى » يعنى أن عذابكم له أجل مضروب عند الله ، وحدٌ محدود من الزمان » [1] .

وأيضاً هذا فيه « بيان لما ابهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمراً منجزاً لا يتوقف على شئ غير مجئ الرسول ، وتكذيب الأمة ، أى لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى مضروب لعذابهم ، يحل بهم عند حلوله [2] .

وفى هذا تهديد لهم ، وقيد مجئ الأجل بـــ (إذا) للدلالة على تحقيق مجيئه وأنه لا يتأخر ولايتقدم فقال « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٠ .

(٢) تفسير أبى السعود ٣/ ٥٠٧ .

يستقدمون » فالفاء واقعة فى جواب (إذا) ، وقدم القرآن نفى التأخر على نفى التقدم تبعاً لما جلبت عليه النفوس البشرية من شهوة البقاء فى الدنيا بخلاف التقدم » .

يقول البقاعى « ولما كان قطع رجائهم من الفسحة فى الأجل من أشد عذابهم قدم ... فلا يستأخرون »[١] .

وليس المراد بالساعة هنا الزمن المحدد المعروف وإنما يراد بها الغاية فى القلة ، أى الكناية عن غاية القلة كما قال أبو السعود » أى شيئاً قليلاً من الزمان ، فإنها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلاً ، وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ، «ولايستقدمون » أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلاً » [٢] .

فالأجل من القدر الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو فى علمه تعالى محدد ومعلوم له ، وحجبه عنا لحكمة ، فمن علم أجله مات حسرة وكمداً على ذلك وترك السعى فى الأرض الذى أمرنا به والله أعلم .

---

(١) نظم الدرر ١٣٥/٩ .

(٢) تفسير أبى السعود ٥٠٨/٣ .

نفى الشفاعة عن الأصنام

واجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل مكة صدوداً واعراضاً حين بلغهم دعوة ربه وآذوه إيذاء شديداً ، ووصفوه بأنه ساحر وذلك فى قول الله تبارك وتعالى « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ» (١) .

وكذبوا بالبعث والقيامة وحكى القرآن ذلك فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» (٢) .

ولما أرادوا دليلاً على صدقه بين لهم أن الله تعالى قد أيده بهذه المعجزة السماوية الخالدة فطلبوا منه قرآناً غير هذا وفى هذا يقول تعالى « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (٣) .

ومن أجل هذا وغيره وصفهم الله تعالى بأنهم أظلم الناس فقال تعالى « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » (٤) .

ويضيف القرآن إلى جرائمهم جريمة أخرى هى من أعظم الجرائم والتى من أجلها أرسل الله تعالى إليهم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى عبادة الأصنام .

---

(١) يونس : الآية ٢ .

(٢) يونس : الآية ٧ .

(٣) يونس : الآية ١٥ .

(٤) يونس : الآية ١٧ .

فقال تعالى « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»[١]

فالواو فى قوله « ويعبدون » حرف عطف والمعطوف عليه ما جاء فى قوله تعالى «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ .... » [٢] . كما قال الرازى «اعلم أنا ذكرنا أن القوم التمسوا من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرآناً غير هذا القرآن أو تبديل هذا القرآن ؛ لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التى جعلوها آلهة لأنفسهم فلهذا السبب ذكر الله تعالى فى هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن » [٣] ، وقيل أيضاً « ويجوز أن تكون جملة » ويعبدون ...» عطفاً على جملة « فمن أظلم ممن افترى ... » فإن عبادتهم مالا يضرهم ولا ينفعهم من الافتراء » [٤] .

فالآية التى نحن بصددها تعد « حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله : « وإذا تتلى عليهم .. » الآية عطف قصة على قصة » [٥] ولعل « المناسبة بين القصتين أن فى كلتيهما كفراً أظهروه فى صورة السخرية والاستهزاء وإيهام أن العذر لهم فى الاسترسال على الكفر » [٦] .

---

(١) يونس : الآية ١٨ .

(٢) يونس : الآية ١٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٦٢/١٧ .

(٤) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٥ .

(٥) تفسير أبى السعود ٣/ ٤٨١ وانظر روح المعانى ١٢٨/٧ .

(٦) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٤ .

وعبر القرآن عن اتخاذهم الأصنام بالعبادة فى قوله « ويعبدون » لأن « العبودية : اظهار التذلل . والعبادة أبلغ منها ولا يستحقها إلا من له غاية الافضال وهو الله تعالى ... والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير .... ، وعبادة بالاختيار وهى لذوى النطق وهى المأمور بها فى نحو قوله تعالى « إعبدوا ربكم » « واعبدوا الله » [١] وبهذا يتضح أنهم عبدوا الأصنام على اعتبار أنها آلهة كما يعبد المسلم ربه .

والتعبير عن العبادة بالمضارع كما قيل « لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها أى عبدوا الأصنام ويعبدونها تعجيباً من تصميمهم على ضلالهم » [٢] أى أن التعبير بالمضارع يدل على اصرارهم على عبادة الأصنام وتمسكهم بعبادتها وقوله « من دون الله » جار ومجرور « متعلق بـ « يعبدون» ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قريناً لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريمه » [٣] ويدل الجار والمجرور على أن هذه الأصنام دون الله تعالى وليست مساوية له تعالى : والعبادة المسندة إليهم قد وقعت على (ما) الموصولة ، أى أن (ما) وقعت فى محل نصب مفعول به ، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب .

ولعل السر فى التعبير عن الأصنام بـ (ما) لإرادة تحقير الأصنام ؛ لأنها لا تضرهم إن تركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها ؛ ولأن المعبود يجب أن يكون

---

(١) المفردات للراغب (عبد) ص / ٤٧٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٤ .

(٣) تفسير أبى السعود ٣/ ٨١ وانظر روح المعانى ١٢٨/٧ .

أكمل قدرة من العابد والأمر هنا بالضر فالكفار قادرون على التصرف فيها بالإفساد والاصلاح وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادتهم لها باطلة [١].

ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قيل « وايثار اسم الموصول فى قوله » مالايضرهم ولا ينفعهم لما تؤذن به صلة الموصول من التنبيه على أنهم مخطئون في عبادة مالا يضر ولا ينفع وفيه تمهيد لعطف ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » لتحقير رايهم فى رجاء الشفاعة من تلك الأصنام » [٢]، ولأن الأصنام « جماد لايقدر على نفع ولا ضر والمعبود ينبغى أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع ودفع ضر » [٣] وهذه الأصنام لا تثيب ولا تعاقب ولا تفعل لهم شيئاً ، وأن ما يفعله الله لهم يسندوه إليها وهذا خطأ عظيم والتعبير عن الضر والنفع المنفيين بالمضارع لإفادة التجدد والحدوث ، أى ان هذه الأصنام لن يقع منها ضر أو نفع فى الحاضر أو المستقبل وبذلك تنتفى عنها صفة الألوهية .

ولم يقتصر القرآن على ذكر الضر فقط إنما عطف عليه النفع لئلا يتوهم أنها لا تضر ولكنها تنفع ، ولارادة عموم أى نفى الضر والنفع معاً .

ولعلك تلحظ تقديم الضر على النفع هنا وتأخيره فى سورة الفرقان [٤] والسر فى تقديمه هنا على ما قيل أن العبادة تكون من العابد للمعبود خوفاً من العقاب أولاً ، ورجاء الثواب ثانياً ، وقد تقدم هنا ما يوجب تقديم الضر وهو قوله تعالى « إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »[٥]، فكأن الله تعالى أراد أن يقول هنا : ويعبدون من دون الله مالا يخافون ضرراً فى معصيته ولا يرجون نفعاً

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٦٣/١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٥ .

(٣) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٢٦/٥ وانظر البحر المحيط ١٣٣/٥ .

(٤) الفرقان آية / ٥٥ .

(٥) يونس : الآية ١٥ .

فى عبادته . وأما فى الفرقان فقد تقدمت قبلها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون كما فى قوله تعالى « وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » [١] ... فقدم النفع على الضر لأجل هذا [٢] .

وأما الغرناطى فقد اشار إلى السر فى تأخير النفع على الضر فى يونس وأن ذلك يرجع إلى أنهم اعتقدوا الشفاعة فى الأصنام والشفاعة فيها نفع [٣] .

والواو فى قوله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » حرف والمعطوف ما قبله ، والعلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه هى أن المعطوف عليه يعد بياناً لسبب عبادتهم لها كما ذكر القرآن ذلك فى قوله تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » [٤] .

والقول بشفاعة الأصنام مبنى على التوهم حيث إن الكفار قد توهموا أن عبادة الصنام أشد فى تعظيم الله تعالى من عبادة الله فقالوا ليست لنا أهلية للاشتغال بعبادة الله بل نشتغل بعبادة الأصنام حيث إنها تشفع لنا عند الله [٥] .

ومقول القول « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » قد وقع فى محل نصب مفعول به جئ به لشفاعة الاصنام عند الله .

وأسندوا الشفاعة إلى الأصنام والمعبر عنها باسم الإشارة الذى للبعيد لإرادة التعظيم لها ، والمضاف والمضاف إليه فى قوله « عند الله » متعلق بـ « شفعاء » دال على اعتقادهم بوجود الله وأن الأصنام شفعاء ، وكيف يعقل أن

---

(١) الفرقان : ٥٤ .

(٢) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص / ١٥٤ ، وانظر تفسير أبى السعود ٣/٤٨١ ، وانظر التفسير القرآنى ٣/٩٧٦ ، والتحرير والتنوير ١١/ ١٢٥ .

(٣) انظر ملاك التأويل ١/ ٢٤٠ .

(٤) الزمر : ٣ .

(٥) انظر مفاتيح الغيب ١٧/٦٣ .

يتجه الإنسان إلى عبادة الشافع ويترك عبادة المشفع عنده ؟ فالشفاعة تستلزم شافعاً ومشفعاً فيه ومشفعاً عنده ، وأمور يشفع فيها ، وتستلزم وجود علاقة بين الجميع كى تتم الشفاعة ، وبالنظر فى كل هذا يتبين أن الله تعالى لم يرد عنه قبول شفاعة الأصنام وأن الأصنام لم يصدر منها قول أو فعل فى طلب الشفاعة ، وبذلك يكون ادعاء الكفار ظاهر البطلان ؛ ولذلك أمر الله تعالى بالرد عليهم فى قوله تعالى « قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات والأرض » .

فأسلوب الأمر فى « قل » جئ به للرد على المشركين الزاعمين أن الأصنام سوف تشفع لهم ، وفصلت عن قوله تعالى » ويعبدون من دون الله » لاختلافهما خبراً وانشاء لفظاً ومعنى .

ومقول القول « أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض » وقع فى محل نصب مفعول به ، والهمزة هنا أريد بها الانكار والتقريع والتهكم ، أى أن المقصود من ذكر انباء الله بما لا تحقق له ولم يتعلق به علمه ، الانكار عليهم والتهكم والهزؤ بهم ، وإلا فلا انباء[1] .

فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شئ علماً ، ومن هذا العلم ما صدر من المشركين من القول بأن الأصنام شفعاء لكن، من أين جاءوا بهذا الخبر ؟ إن ادعوا أن هذا جاء من السماء فهم كاذبون فيه ، وإن قالوا إنه من عند أنفسهم فقد تقولوا على الله تعالى ، وفى هذا يقول الزمخشرى : « أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو انباء بما ليس معلوماً لله ، وإذا لم يكن معلوماً له ــ وهو العالم بالذات المحيط بجميع المعلومات ــ لم يكن شيئاً ؛ لأن الشئ ما يعلم به ويخبر عنه فكان خبراً ليس له مخبر ، فإن قلت : كيف أنبئوا الله بذلك ؟ قلت هوتهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام وأعلام بأن الذى أنبئوا به

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٢٧٥ ونظم الدرر ٩٢/٩ .

باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لايعلمه»[١] .

والانباء المسند إلى الضمير العائد إليهم قد وقع على (ما) والمعبر بها عن الشفاعة أى أنها فى محل نصب مفعول به ، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب .

والعلم المنفى المسند إلى الضمير العائد على الله تعالى قد قيد بالسماوات والأرض ، وقوله فى السماوات ولا فى الأرض » قد وقع حالاً من الضمير العائد المحذوف كما ذكر البيضاوى والذى عقب الشهاب على قوله « قوله حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفى منبهة على أن ما تعبدون من دون الله إما سماوى وإما أرضى ولا شئ من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم » [٢] يقول الشهاب « وهو مفعول يعلم إذ التقدير بعلمه وهذه الحال مؤكدة للنفى الشريك المدلول عليه بما قبله وهو جار على التفسيرين ، ووجه التأكيد أنه جرى فى العرف عند تأكيد النفى للشئ : ليس هذا فى السماوات ولا فى الأرض لااعتقاد العامة أن كل مايوجد إما فى السماء وإما فى الأرض كما هو رأى المتكلمين فى كل ماسوى الله ... وهذا إذا أريد بالسماء والأرض جهتا العلو والسفل ... وعلى كلام المصنف .... فيه دليل على نفى مدعاهم لأن ما فيهما مخلوق مقهور فكيف يكون شريكاً لخالقه ؟ » [٣]

فظاهر كلام الشهاب يدل على بيان السر فى ذكر ما فى السماوات والأرض ، وأنه يراد به عموم العلم بكل ما فى الكون .

---

(١) الكشاف ٢/٢٣ وانظر مفاتيح الغيب ١٧/٦٣ .

(٢) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٥/٢٧ .

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧ .

ومن خلال سياق الآية يتضح أن الله تعالى قد بين ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء بعبادتهم للأصنام ختم ذلك بتنزيه نفسه عن الشريك فقال « سبحانه وتعالى عما يشركون» [1].

يقول أبو حيان : « ولما ذكر تعالى عبادتهم مالا يضر ولا ينفع وكان ذلك اشراكاً استأنف تنزيها بقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » و(ما) يحتمل أن تكون بمعنى الذى ومصدرية أى شركائهم الذين يشركونهم به ، أو عن اشراكهم ... وأتى بالمضارع ولم يأت (عما اشركوا) للدلالة على استمرار حالهم كما جاءوا يعبدون وأنهم على الشرك فى المستقبل كما كانوا عليه فى الماضى » [2].

---

(١) انظر نظم الدرر ٩٢/٩ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ١٣٤ .

انتفاء الألوهية عن الأصنام

وصف الله تبارك وتعالى نفسه بالقدرة والعظمة والعزة والجلال [١] تذكيراً للكفار بما هو مركوز فى نفوسهم بالفطرة من الاقرار لله تعالى بالوحدانية [٢] وذلك فى قوله تعالى : «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا » [٣] .

واتبع ذلك ببيان زيف عبادة الأصنام [٤] وببيان ضلال الكفار للطريق المستقيم باقدامهم على عبادة الأصنام فقال « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا » [٥] .

فالواو فى قوله « واتخذوا » استئنافية ؛ لأن ماقبلها فى ذكر صفات الخالق ، ومابعدها فى بيان عبادتهم للأصنام وعبر القرآن عن الكفار بالضمير فى قوله « واتخذوا » دون الظاهر وذلك « إشارة إلى استهجان نسبة هذا الفعل إلى فاعل معين توبيخاً لهم وارشاداً إلى المبادرة من كل سامع إلى نفيه » [٦] .

والتعبير عن العبادة بالاتخاذ قد أشير إليه فى الرعد [٧] ، ولعل السر فى التعبير بالماضى فى « واتخذوا » الدلالة على تحقق عبادتهم للأصنام وتمسكهم بها .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٢٤ / ٤٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ٣٢٦/١٣ والتفسير القرآنى ١٣٥١/٥ .

(٣) الفرقان : ١ ــ ٢ .

(٤) انظر مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٩ .

(٥) الفرقان : ٣ .

(٦) نظم الدرر ١٣/ ٣٣٦ وانظر التفسير القرآنى ١٣٥١/٥ .

(٧) انظر ص /٨٣ من هذا البحث .

وقوله « من دونه » جار ومجرور متعلق باتخذوا والسر فى ذكره بيان سفول رتبة الأصنام ، ودفع مايمكن أن يتوهم مساواة الأصنام لله تعالى فى رتبة الألوهية [١] وأوقع الفعل المسند إلى الضمير العائد على الكفار على قوله « آلهة » وهى فى الحقيقة والواقع ليست كذلك وإنما ذلك يرجع إلى ما كان من الكفار من نسبة الألوهية إليها .

ولعل السر فى التعبير بالجمع فى (آلهة) الدلالة على انتشار عبادتها بين القبائل آنذاك ، فكل قبيلة لها آله تعظمه وتقدسه ثم وصف المفعول به (آلهة) بعدة صفات فقال « لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يمكلون موتاً ولا حياة ولا نشورا » .

والوصف مبين وموضح للموصوف وكاشف عن خصائصه ، وبدأ الوصف الأول بنفى خلق الأصنام لأى شئ ؛ لأن الخلق إنما ينشأ عن قدرة وهذه الأصنام لا قدرة لها على شئ أصلاً لأنها جمادات ؛ ولأن العبادة عبارة عن شكر المنعم على نعمه ، ومن هذه النعم القدرة على خلق الكون والإنسان من العدم وبذلك لا سند لعبادتهم لها كما قال أبو حيان « وصف الآلهة بانتفاء انشائهم شيئاً من الأشياء إشارة إلى انتفاء القدرة بالكلية ، ثم بأنهم مخلوقون لله ذاتاً أو مصنوعون بالنحت والتصوير على شكل مخصوص وهذا أبلغ فى الخساسة ، ونسبة الخلق للبشر تجوز»[٢] .

والتعبير عن الأصنام بالخلق بعد وصفاً لها بصفة العقلاء وذلك « إشارة إلى أنها إذا قيست بهؤلاء المشركين الذين يعبدونها كانت أثقل ميزاناً وأعلى منزلة وأشرف قدراً ... إنها معبودة وهم لها عابدون ، وأنهم ـ فيما يبدو للناس ـ أصحاب عقول فكيف لا يكون لآلهتهم تلك التى يعبدونها عقول كعقولهم ؟ وهل

---

(١) انظر نظم الدرر ١٣/٣٣٦ .

(٢) البحر المحيط ٦/ ٤٨١ .

يعقل ان يكون المعبود دون العابد في شئ ؟ » [١] وأوقع الفعل المنفى المسند إلى الضمير العائد إلى الأصنام على قوله شيئاً وذلك للدلالة على التعظيم والتحقير أى لا تخلق الأصنام شيئاً عظيماً أو حقيراً أو غير ذلك فهى لا تخلق شيئاً فكيف تعبد من دون الله ؟وبانتفاء هذا الوصف عن الأصنام يستلزم اثباته لله تعالى .

والواو فى قوله « وهم يخلقون » حرف عطف والمعطوف « وهم يخلقون » وقع فى محل نصب صفة ثانية للمفعول به (آلهة) ؛ لأن نفى الخلق عنها فى قوله « لايخلقون شيئاً » ينبئ عن ادعاء أنها غير مخلوقة فذكر أنها مخلوقة كما قال البقاعى : « ولما كان المتعنت ربما أدعى أنهم مع ذلك غير مخلوقين قال « وهم يخلقون » أى بما يشاهد فيهم من التغيير والطواعية لمشيئته سبحانه ومن ذلك أن عبدتهم افتعلوهم بالنحت والتصوير » [٢] .

ولما كان السياق فى معرض الرد على الكفار قدم المسند إليه على خبره الفعلى لتوكيد وتقرير هذه الحقيقة فى نفوس المخاطبين،ولما كانت عبادتهم للأصنام مردها إلى اعتقاد شفاعتها لهم عند الله ، وأنها تدفع عنهم اى ضر نازل وتجلب لهم أى نفع ... نفى عنها الملك والقدرة ، وأوقع الفعل المنفى المسند إلى الضمير العائد عليها والمتعلق به الجار والمجرور على الضر والنفع .

والسر فى تعلق الجار والمجرور بالمسند فى قوله « لايملكون لأنفسهم » أن انتفاء ملك الضر والنفع للنفس يلازمه انتفائه عنهم وعن غيرهم ، لأن مالك الشئ يرجع به إلى نفسه أولاً ليدفع به عنها أى ضر ويجلب لها به أى نفع وبذلك تكون الأصنام عاجزة أشد العجز كما قال الشهاب : « وقال لأنفسهم ، ليدل على غاية عجزهم ؛ لأن من لم ينفع نفسه لاينفع غيره » [٣] .

---

(١) التفسير القرآنى ٣٥١/٥ ــ ٣٥٢ .

(٢) نظم الدرر ٣٣٧/١٣ .

(٣) حاشيه الشهاب ١٠٢/٧ وانظر روح المعانى ٣٤٣/١٨ .

والسر فى عطف النفع على الضر دفع توهم نفى ملك الضر فيثبت لهم ملك النفع ، وذلك لا يكون فيراد حينئذ العموم كما قال ابن عاشور « واعلم أن ضراً ولا نفعاً هنا جرى مجرى المثل بقصد الاحاطة بالأحوال فكأنه قيل : لا يملكون التصرف بحال من الأحوال وهذا نظير أن يقال : شرقاً وغرباً ، ليلا ونهاراً» [١] ولا يخفى الإيجاز بالحذف فى قوله « ولانفعا » أى ولا يملكون نفعاً » وجاء كل من الضر والنفع نكرة للدلالة على العموم .

وتقديم الضر على النفع قد اشار إليه الاسكافى فى قوله بين آيتى الفرقان والرعد فذكر أن تقديم الضر على النفع فى الرعد لأنه قد قدم فيها الأفضل على الانقص ؛ لأن اجتلاب النفع أشرف من استدفاع الضر وهو رتبة فوقه ، وأما فى الفرقان فإنه بنى على ما قبله فى قوله تعالى « لايخلقون شيئاً وهم يخلقون فقوله « لايخلقون » نفى (وهم يخلقون) اثبات فقدم النفى على الاثبات وكان الضر نفياً والنفع اثباتاً [٢] أو قيل أيضاً « وقدم دفع الضر لأنه الأهم » [٣] أو « لأن جلب الضر أيسر من تحصيل النفع .. فالإنسان يستطيع أن يضر نفسه بأيسر مجهود بل وبلا مجهود أصلاً وحسبه أن يقف فى طريق الحياة من غير حركة فإنه إن فعل سيجد ألواناً من الضر والأذى تزحف إليه من كل اتجاه .. وليس كذلك تحصيل النفع فإنه يحتاج إلى بذل وجهد وهو الثمن المقابل لهذا النفع كيلاً بكيل ووزناً بوزن » [٤] فقوله « وهم يخلقون » وصف ثالث لهم بالايجاب وماقبله كان بالنفى « لايخلقون » والواو فى قوله « ولايملكون موتاً ولاحياة ولا

---

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٣٢٠ .

(٢) انظر درة التنزيل ص / ٢٣٥ .

(٣) حاشية الشهاب ١٠٢/٧ .

(٤) التفسير القرآنى د/ ١٣٥٢ .

نشوراً » للعطف والمعطوف عليه ماقبله ، لأن هذا يعد وصفاً رابعاً فيكون فى محل نصب لأنه وقع صفة لآلهة .

وفى هذا إيجاز بالحذف حيث يجوز تقدير مسند ومسند إليه بعد الواو فى قوله « ولا حياة ولانشوراً» .

وقد كرر المسند والمسند إليه فى قوله « ولايملكون لأنفسهم » ولايملكون موتاً.. مع جواز العطف بالواو على دون ذكر المسند والمسند إليه ولعل السر فى هذا المبالغة فى وصف الأصنام بصفات العجز أى لا تملك هذا ولا تملك غيره مطلقاً .

ويجوز أن يقدر جار ومجرور بعد قوله « لايملكون » وهو « لايملكون لأنفسهم » ودل عليه ماقبله ، ويكون المراد أن الأصنام لاتملك اماته نفسها أو إحياء نفسها أو بعث نفسها وبالتالى لا تملك لهم ولالغيرهم من جميع المخلوقات وبالتالى تنتفى عنها القدرة بالكلية .

ويجوز أن يكون التعبير على ظاهره ويكون المراد كما يقول الألوسى » أى لايقدرون على التصرف فى شئ منها بإماته الأحياء وإحياء الموتى فى الدنيا وبعثهم فى الآخرة للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على ان الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك وتقديم الموت لمناسبة الضر المقدم » [1] فمقتضى الظاهر تقديم الحياة على الموت ؛ لأن الحياة إيجاد من العدم والموت تال لذلك والبعث تال لهما ، ولكن القرآن قدم الموت كما ذكر الألوسى لمراعاة تقديم الضر على النفع ، والموت منظور فيه إلى العدم السابق للوجود ، وتأخير النشور أى البعث يعد من دقة القرآن ، لأن يوم القيامة هو ذلك اليوم الذى يعلق الكفار على الأصنام آمالهم فى الشفاعة فإذا كانت الأصنام لا تملك ولا

---

(١) روح المعانى ١٨/٣٤٣ .

تقدر على مايلازم ذلك من التصرف فى أحوال الخلق يوم القيامة وبذلك لا تدفع عنهم العقاب على عبادتهم للأصنام ، فختم بها الآية .

وتنكير قوله تعالى « موتا ، حياة ، نشور » للدلالة على العموم أى لا تملك أى نوع من أنواع الموت ، ولا أى نوع من أنواع الحياة وكذا النشور .

عظم الشرك

الشرك بالله تعالى من أكبر الذنوب وأعظمها ، ولذا أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله رحمة منه بعباده ليخلصهم من براثن إبليس وأعوانه الذى حكى الله تعالى عنه قوله فى قوله تعالى : « قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ».[1]

وكلما مرَّ زمن ونسى الناس عبادة الله تعالى أرسل الله تعالى إليهم من يذكرهم ويدعوهم إلى عبادته حتى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى خاطبه الله تعالى بقوله : « وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ »[2] .

الواو فى قوله « ولا تدع » حرف عطف واختلف فى المعطوف عليه ، فرجح أبو السعود العطف على ما جاء فى قوله تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ

---

(١) الأعراف : ١٦ ـ ١٧ .

(٢) يونس : ١٠٦ .

أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »[١] فقال « عطف على قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ » غير داخل تحت الأمر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الأول ؛ لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض ـ كما ترى ـ ولا وجه لادراج الكل تحت الأمر ، وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما اجمل فيه إظهاراً لكحال العناية بالأمر وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون اى لاتدع (من دون الله « استقلالاً ولا اشتراكاً مالا ينفعك »[٢] وأما أبو حيان فذكر أن الواو إما أن تكون للاستئناف وإما أن يكون المعطوف عليه الأمر فى قوله (اقم) فقال: « يحتمل أن يكون استئناف نهى ويحتمل أن يكون معطوفاً على (أقم) فيكون فى حيز (أنْ) على قسميها من كونها مصدرية وكونها حرف تفسير »[٣] وذكر ابن عاشور أن المعطوف عليه « ولاتكونن من المشركين » فقال: « عطف على (ولا تكونن من المشركين) ولم يؤكد الفعل بنون التوكيد لئلا يمنع وجودها من حذف حرف العلة بأن حذفه تخفيف وفصاحة ولأن النهى لما اقترن بما يومئ إلى التعليل كان فيه غـنية عن تأكيده »[٤] .

ولعل الذى تميل إليه النفس هو أن المعطوف عليه « ولا تكونن من المشركين » حيث يعد توكيداً للنهى السابق ، أى ولا تكونن من المشركين ، ولاتدع من دون الله مالاينفعك ولا يضرك .

واسلوب النهى فى الظاهر موجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعلوم أنه يستحيل صدور المنهى عنه منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا كان

---

(١) يونس : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) تفسير أبى السعود ٣/ ٥٤٤ .

(٣) البحر المحيط ٥/١٩٦ وانظر الدر المصون ٦/٢٧٥ .

(٤) التحرير والتنوير : ١١/ ٣٠٤ .

الأمر كذلك فلم توجه إليه بالنهى ؟ وفى الجواب عن ذلك يمكن القول : إن من أساليب الخطاب فى القرآن « خطاب العين والمراد به الغير نحو « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ » [١] الخطاب له والمراد أمته لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان تقياً وحاشاه من طاعة الكفار ، ومنه (فإنْ كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب) [٢] حاشاه ـ صلى الله عليه وسلم من الشك وإنما أفرد بالخطاب ليعرض بالكفار » [٣] .

وأيضاً يمكن القول : إذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من هو عند الله يخاطب بمثل هذا الخطاب ، فما بالنا بغيره ؟

وذكر أيضاً أن « فى خطاب النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه بهذا النهى تغليظ لشناعة المنهى عنه وتهويل للخطر الذى يتهدد الناس منه وأن على كل إنسان أن يوقظ وجوده كله حتى لايقع فى هذا المحذور أو يدنو منه ... وكفى أن يكون المنهى عنه هو الشرك بالله وكفى أن ينبه النبى الكريم إلى هذا الخطر وهو أعلم الناس به وأبعدهم عنه » [٤]

وعبر القرآن هنا عن العبادة بالدعاء ؛ لأن العابد يكون فى مسيس الحاجة إلى من يعبده ، وأول درجات الحاجة الطلب الذى يكون عن طريق الدعاء ، فالدعاء هو العبادة ؛ لأنه يتبين به الفرق بين المخلوق المحتاج والخالق الواهب والمعطى ووقع الدعاء هنا المسند إلى الضمير على (ما) المعبر بها عن الأصنام والتى تأتى لغير العاقل للدلالة على عدم أحقية هذه الأصنام بالعبادة لأنها جمادات ولذا جاءت جملة الصلة بنفى النفع المتجدد الحادث عن هذه الأصنام أى لا تنفع

---

(١) الأحزاب : ١ .

(٢) يونس : ٩٤ .

(٣) الاتقان للسيوطى ٣/ ١٠٣ .

(٤) التفسير القرآنى ٣/ ١٠٩٥ .

الآن ولا تنفع فى المستقبل ولا تنفع إلى يوم القيامة ولا تنفع يوم القيامة ـ كما اعتقد فيها ـ بالشفاعة وهذا ما أفصح عنه التعبير بالمضارع المسند إلى الضمير العائد إلى الأصنام والواقع على الكاف الواقعة فى محل نصب مفعول به وعبر عن المفعول به بالإفراد دون الجمع ؛ تبعاً لأسلوب الخطاب في قوله «ولاتكونن» « ولا تدع» ومع هذا فليس هناك ما يمنع من القول بأن الله تعالى أراد التوجه بالخطاب إلى كل فرد من أفراد خلقه ممن يصلح أن يخاطب ألا يشرك مع الله تعالى غيره وعطف قول « ومالا يضرك » على قوله « مالا ينفعك » للدلالة على العموم حيث يمكن أن يقال : إن الأصنام قد انتفى عنها النفع فيمكن أن تضر فجاء قوله تعالى « ولايضرك » دفعاً لهذا .

وقدم النفع على الضر هنا ؛ لأن الغرض الأول الذى تطمح إليه النفس عند التوجه بالعبادة إلى المعبود طلب المحبوب : ولأن الانسان إذا أراد الحاق الضرر بنفسه كفها عن طلب النفع .

وأما الفاء فى قوله « فإن فعلت » فقد وقعت فى جواب النهى ، وقيدت العبادة هنا بأداة الشرط (إنْ) للدلالة على أن دعاء غيره وعبادته نادر الوقوع من الإنسان العاقل السوى ، وأن الله تعالى لا يريد وقوعه أصلاً .

وعبر القرآن عن عبادة غيره تعالى بالفعل فى قوله « فإن فعلت » دون فـ « فإن دعوت » وذلك للاشارة إلى أن لفظ الفعل يكني به عن أى فعل فهو بمنزلة اسم إشارة فكما إذا ذكرت أشياء متعددة قبل ذلك فذلك إشارة إليها [1] .

فالتعبير عن العبادة أو الدعاء بالفعل ؛ لأن العبادة إما قوليه وإما فعليه بحركات الجوارح ، أو؛ لأن عبادة غير الله تعالى ـ كما هو معلوم ـ من الأفعال القبيحة التى لا يجوز التصريح بها فعبر عنها بالفعل او ان ذلك يحمل على التغليب والفاء فى قوله « فإنك إذاً من الظالمين » واقعة فى جواب الشرط : (إنْ)

---

(١) انظر حاشية الشهاب ١١٢/٥ .

والكاف اسمها وخبرها من الظالمين ، وتوسطت (إذاً) بين الاسم والخبر مع أن رتبتها بعد الخبر رعاية للفاصلة[1] وتوكيد الكلام بـ (إنَّ) ، لأن الخطاب هنا موجه إلى من يعتقد او يرى أن عبادة غير الله حق كمن يعبد الأصنام أو من يعتريه شك في هذا وعبر عن المشركين بالظالمين ، لأن الاشتغال بطلب المنفعة والمضرة من غير الله تعالى يعد ظلماً ؛ لأن الظلم وضع الشئ في غير موضعه ، فإذا كان ما سوى الله تعالى بمعزل عن التصرف كان طلب المنفعة والمضرة مما سوى الحق وضع للشئ في غير موضعه فيكون ظلماً [2] .

---

(١) انظر روح المعاني : ٦ / ٢٢١ .

(٢) انظر حاشية زاده ٣/ ٣١ .

تفرد الله بالوحدانية والربوبية

دلَّ الله تعالى على وجوده ببعض مظاهر مخلوقاته فى الكون وفى السماوات والأرض وفى الإنسان ... وفى ارسال أنبيائه ورسله إلى الناس ليقروا له بالألوهية والوحدانية والربوبية وانقسم الناس تجاه دعوة الأنبياء والرسل إلى مؤمن مقر بوجود الله تعالى وبوحدانيته وبكل ما وعد وتوعد وإلى مكذب معاند لم يلن قلبه بوعد الله ولم يخش عقابه وعذابه ، وهذا دأب الناس فى كل أمة ، ولم يختلف حال كفار مكة تجاه دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» (١) .

إلى أن استنطقهم القرآن بربوبيته للسماوات والأرض فأقروا ولكنهم كابروا وعاندوا يقول تعالى : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»(٢) .

فقوله تعالى « قل » أمر مسند إلى ضمير المخاطب وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك للرد على عبدة الأصنام المنكرين للبعث والمكذبين بكل مادعو إليه والوارد ذكرهم فى سياق الآيات السابقة ، يقول الرازى « واعلم أنه تعالى لما بين أن كل من فى السماوات والأرض ساجد له (٣) بمعنى كونه

---

(١) الرعد : ١ .

(٢) الرعد : ١٦ .

(٣) وذلك فى قوله تعالى « ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال « الرعد : ١٥ .

خاضعاً له عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فى قوله « قل من رب السماوات والارض » [١].

ومقول القول صدر بالاستفهام المراد به التقرير[٢] ومثل هذا الاستفهام يحمل فى طياته طرقًا لعقولهم ، ودعوة إلى النظر والتفكر والتدبر فيما هم فيه من تناقض عجيب حيث يقرون بربوبيته ويعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع والمستفهم عنه هنا هو « رب السماوات والأرض » وعبر القرآن عن الله تعالى بالرب دون غيره ؛ لأنها تدل على الخالق والمالك ، فالمربى هو المتكفل بشئون خلقه . ويقول الراغب «الرب فى الأصل التربية وهو إنشاء الشئ حالاً فحالاً إلى حد التمامه يقال : ربّه وربّاه وربيه .. فالرب مصدر مستعار للفاعل ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله المتكفل بمصلحة الموجودات ... والمتولى لمصالح العباد » [٣] .

وإضافة هذه الكلمة إلى السماوات والأرض ؛ لأنه تعالى خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق [٤] وخصا بالاستفهام دون غيرهما لعظم خلقهما ويمكن أن يقال : لم جمع السماوات وأفرد الأرض ؟

وفى الجواب عن ذلك ذكر السيوطى أن جمع السماوات للدلالة على الكثرة والسعة والعظمة ، وأما إذا أراد الجهة أفرد السماوات [٥] فالسماوات طبقات وأما الأرض فليست طبقات ولذا جاءت مفردة .

ويمكن أن يقال : إن القرآن حكى عنهم اقرارهم بأن الله رب السماوات السبع فى قوله تعالى « قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/١٣ وانظر حاشية الشهاب ٣/ ١١٤ ونظم الدرر ٣١١/١٠ .

(٢) انظر نظم الدرر ٣١١/١٠ وحاشية زاده ١١٤/٣ .

(٣) المفردات للراغب رب ٢٦٩ .

(٤) انظر روح المعانى ١٣ .

(٥) الإتقان للسيوطى ٢/ ٢٩٩ ــ ٣٠٠ .

سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » [١] ، وفى قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله »[٢] فلِمَ لقنهم الجواب هنا فى قوله » ؟

وفى الجواب عن ذلك يقول الزمخشرى : إن هذا « حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم ؛ لأنه إذا قال لهم « من رب السماوات والأرض » لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله كقوله « قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله » وهذا كما يقول الناظر لصاحبه : أهذا قولك ؟ فإذا قال هذا قولى قال قولك ، فيحكى اقراره تقريراً له واستيثاقاً منه ، ثم يقول له : فليزمك على هذا القول كيت وكيت ويجوز أن يكون تلقيناً أى إن كفوا عن الجواب فلقنهم فإنهم يتلقونه ولايقدرون أن ينكروه » [٣] .

وما قاله الزمخشرى ـ كما هو واضح ـ يشتمل على وجهين : الأول : أنه حكاية لاعترافهم ، والثانى : أنه تلقين للجواب والذى يمكن أن يلائم سياق الآية هو الثانى ؛ لأنه لو كان حكاية لاعترافهم لم يكن هناك فرق بين أن يقولوا : « سيقولون لله » « وليقولن الله » وبين « قل الله » وفى هذا يقول الشهاب على البيضاوى « قوله : (أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ؛ ولأنه البين الذى لا يمكن المراء فيه ، أو لقنهم الجواب .. ونكتة مبادرة السائل إلى الجواب ، والجواب عن الخصم ، وقد وجهه المصنف ـ رحمه الله ـ هنا بأنه لتعينه للجواب ؛ ولأنه لا نزاع فيه للمسؤول منه ، والفرق بينهما أنه على الأول متعين عقلاً سواء كان بيناً أو لا ، وعلى الثانى أنه أمر مسلم ظاهر لكل أحد بقطع النظر

---

(١) المؤمنون : ٨٦ ـ ٨٩ .

(٢) لقمان : ٢٥ .

(٣) الكشاف ٢/ ٣٥٥ .

عن تعينه ، ولهذه المغايرة عطفه فلا وجه لما قيل الأولى ترك العطف ليكون للأول ، وعلى الأخير لقنهم الجواب ليتبين لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ، وقيل : إنه حكاية لاعترافهم ، والسياق يأباه » [١] . وجملة الاستفهام وقعت فى محل نصب مفعول به .

ويلاحظ أن القرآن لم يدعهم فى هذه الآية إلى نبذ عبادة الأصنام من أول الأمر ؛ لأنها قارة وراسخة فى نفوسهم وإنما تدرج بهم فى الخطاب ــ وهذا هو أسلوب القرآن فى إقامة الحجة على الخصم المعاند ــ فبعد إقرارهم بأن رب السماوات والأرض هو الله ، وجب عليهم حينئذ نبذ عبادة الأصنام واخلاص العبادة له ، ولما لم تكن منهم أى إجابة انتقل من التقرير إلى الإنكار عليهم تمسكهم واصرارهم على اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله تعالى : « قل أفا تخذتم من دونه أولياء » .

فالهمزة هنا للإنكار الواقع لا لإنكار الوقوع ، وأما الفاء فهى عاطفة للتسبب والتفريع حيث رتبت الكلام الثانى على الأول ، والمعطوف عليه مقدر بعد الهمزة أى بعد أن علمتم أنه رب السماوات والأرض والذى ينقاد لأمره تعالى كل من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه من دونه أولياء ؛ فهم قد جعلوا ذلك العلم سبباً للإشراك وأدخلت همزة الإنكار على الفاء ، لأن المنكر الاتخاذ بعد العلم والاقرار لا العلم ولا هما معاً ، فالاتخاذ بعد العلم والاقرار أقبح من الاتخاذ بدونه [٢] .

ولما كانت عبادتهم للأصنام قد تمكنت فى قلوبهم وعقولهم واستحوذت على أفكارهم حيث زين لهم الشيطان عبادتها من دون الله تعالى عبر عن تلك العبادة بالاتخاذ فى قوله «أفاتخذتم » فالأخذ كما ذكر الراغب وغيره يراد به «

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٤٠١ ــ ٤٠٢ وانظر روح المعانى ١٣/١٨٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٣٥٥ والبحر المحيط ٥/ ٣٧٩ وحاشية الشهاب ٥/ ٤٠٢ وحاشية زاده ٣/١١٤ وروح المعانى ١٣/١٨٣ والتفسير القرآنى ٤/ ٩٠ .

حوز الشئ وتحصيله وذلك تارة بالتناول نحو « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » وتارة بالقهر نحو « لا تأخذه سنة ولا نوم » ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ ، والاتخاذ افتعال منه ، ويُعدى إلى مفعولين نحو قوله تعالى « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » «واتخذوا من دونه أولياء»[1] .

وقد اتضح السر فى التعبير بقوله تعالى « من دونه « حيث أراد الله تعالى بيان سفول رتبة الأصنام[2] .

وعبر القرآن عن الأصنام بالأولياء لما اعتقده هؤلاء فى الأصنام من النصر والعون والرزق والشفاعة وغير ذلك ؛ فالولى كما قيل : « هو الناصر ، وقيل المتولى لأمور العالم والخلائق القائم بها ، والولى : الصديق والنصير قال ثعلب : كل من عبد شيئا من دون الله فقد اتخذه وليا » [3] .

ثم وصف القرآن تلك الأصنام بقوله « لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً » والوصف ـ كما ترى ـ جملة فعليه فعلها مضارع دخلت عليه أداة النفى (لا) . حيث نفى ملك الأصنام لأنفسها نفعاً وضراً ، والملك قد فسره الراغب بقوله : «والملك ضربان : ملك هو التملك والتولى ، وملك هو القوة على ذلك تولى أو لم يتول ... قال بعضهم : الملك اسم جامع لكل من يملك السياسة إما فى نفسه

---

(١) المفردات للراغب (أخذ) / ٨ ـ ٩ وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (أخذ) / ٦٢ وبالرجوع إلى ماذكره أبو السعود ٢٧٢/١ والألوسى ١/ ٥٧٧ عند قوله تعالى فى سورة البقرة « وقالوا اتخذ الله ولدا» البقرة / ١١٦ ذكر أن الاتخاذ إذا كان بمعنى الصنع والعمل فهو يتعدى إلى مفعول واحد وإذا كان بمعنى التصيير فهو يتعدى إلى مفعولين .

وحينئذ يكون المراد أن المشركين صيروا الأصنام أولياء لله فأشركوهم معه حيث اعتقدوا فيهم ما اعتقدوا من النصر والعون والشفاعة والأصنام لم تدعهم إلى عبادتها إنما هم الذين عبدوها .

(٢) انظر نظم الدرر ٣١١/١٠ ـ ٣١٢ .

(٣) المعجم الفريد (ولى) ٢/ ٥٢٦ .

وذلك بالتمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها ، وإما فى غيره سواء تولى ذلك أو لم يتول » [١] فالمالك قادر والقادر متمكن مما ملك ، وبذلك يتصرف فيما يملك والملك المنفى هنا أسند إلى الأصنام التى عبر عنها بضمير الغائب تحقيراً لها والتعبير بالمضارع فى « لا يملكون » للدلالة على مصاحبة العجز لها قبل عبادتهم لها ووقت عبادتهم لها ، وإلى يوم القيامة ، وهذا التعبير من دقة القرآن وبلاغته وصلاحيته لكل زمان .

ولعل السر فى التعبير بالمتعلق فى قوله تعالى « لأنفسهم » دفعاً لما يمكن أن يتوهم أنها تملك لأنفسها ولا تملك لغيرها ، وأن من لايملك لنفسه التى هى أعز عليه من كل شئ سواها ، فكيف يملك لغيره ؟وبذلك تكون عبادتهم لها عبثاً وسفهاً [٢] يقول الشهاب « وقال لأنفسهم ليدل على غاية عجزهم ، لأن من لا ينفع نفسه لاينفع غيره » [٣] .

والملك المنفى قد وقع على كل من النفع والضر ؛ لأن حاجة العابد من المعبود تنحصر فى جلب كل نفع ، ودفع كل ضر ؛ ولذا جاء كل منهما نكرة للدلالة على عموم النفع والضر[٤] فلم يعبر القرآن بنفى ملك النفع فقط لأنه لما كان « من المعلوم أنه لا قدرة لأحد على أن يؤثر فى آخر أثراً لايقدر على مثله فى نفسه قال « ولا ضراً » فثبت أن من سواهم بالله أضل لضالين ، لأنه يلزمه أن يسوى بين المتضادات » [٥] .

---

(١) المفردات للراغب (ملك) /٤٩٣ ، وانظر حاشية الشهاب ٤٠٢/٥ .

(٢) انظر مفاتيح الغيب ٣٧/١٩ .

(٣) حاشية الشهاب ١٠٢/٧ وانظر روح المعانى ٣٤٣/١٨ .

(٤) انظرنظم الدرر ٣١٢/١٠ .

(٥) نظم الدرر ٣١٢/١٠ ، وانظر التحرير والتنوير ١١٣/١٣ .

وجملة الصفة تعد توكيداً للإنكار الوارد فى قوله « أفاتخذتم » وتقوية له [١] وغير خاف عليك الطباق بين النفع والضر .

وأما فيما يتعلق بتقديم النفع على الضر هنا فهو كما ذكر الخطيب الاسكافى حيث يقول : و « للسائل أن يسأل عن تقديم نفع على ضر فى سورة الرعد وعكس ذلك فى سورة الفرقان ، وما الذى أوجب هذا الاختلاف ؟ الجواب عن ذلك أن يقال : أما فى سورة الرعد فإنه قدم فيه الأفضل على الأنقص ؛ لأن اجتلاب النفع أشرف من استدفاع الضر ، وهو رتبة فوقه فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضرر فهو على وجهه فى الترتيب . وأما فى سورة الفرقان فإنه بنى على ما قبله وهو « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون فقوله « لايخلقون » نفى «وهم يخلقون » اثبات فقدم النفى على الاثبات وكان الضر نفياً والنفع اثباتاً أى النفع اثبات المصالح وايجادها والضر نفيها فكما قدم فيما قبله على ما اثبت حمل المعطوف عليه ليكون مشاكلاً له » [٢] .

ثم سلك القرآن مع المشركين طريقاً آخر وهو بيان الفروق بين الأشياء الظاهرة التضاد فقال « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور » بأسلوب الأمر فى قوله (قل) وجاء مقول القول مصدراً بالاستفهام بـ (هل) المراد بها النفى أى لا يستوى ... ويمكن أن يعبر القرآن عن مقول القول بقوله « قل لا يستوى الأعمى والبصير..» بالأسلوب الخبرى لكن القرآن عدل عن ذلك ؛ لأن الاستفهام فيه توجيه لأنظارهم وتحريك لعقولهم وأفكارهم فى شأن الأصنام التى عبدوها من دون الله فيرجعوا إلى أنفسهم لترتدع عن غيها وضلالها ؛ ولأن شأن المدرك للفرق بين الأعمى والبصير لا يخفى عليه ادراك الفرق بين الضال والمهتدى ، وأن المدرك للظلمات والنور لا يخفى عليه الفرق بين الكفر

---

(١) انظر تفسير ابى السعود ٤/٢٠٤ ؛ وروح المعانى ١٣/١٨٣ .

(٢) درة التنزيل / ١٨١ .

والإيمان ، فكذلك أيضاً لا يخفى عليه ادراك الفرق بين الخالق الرازق ... الذى هم فى آلائه منغمسون ، وبين هذه الأصنام التى لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ولاحياة ولانشوراً .

وقد عبر القرآن عن الضال الذى أشرك مع الله غيره بالأعمى على جهة الاستعارة التصريحية والعلاقة بينهما المشابهة فى عدم الاهتداء إلى الطريق المستقيم ، والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام ؛ لأن السياق فى بيان عجز الأصنام والعاجز لا يصح أن يكون إلهاً معبوداً وإنما الذى يجب الاتجاه إليه بالعبادة هو الله[١] .

وعبر عن المؤمن الذى رزق الهداية بالبصير ، على جهة الاستعارة التصريحية والعلاقة المشابهة فى الهداية إلى الطريق المستقيم [٢] .

و(أم) فى قوله تعالى (أم هل تستوى الظلمات والنور) « منقطعة تقدر بـ (بل) والهمزة على المختار والتقدير أهل تستوى » [٣] ، وعبر القرآن عن الكفر بالظلمات على جهة الاستعارة التصريحية وفصل بين جملة « قل » فى قوله « قل من رب السماوات » «وبين » قل الله فصل الجواب عن السؤال لا تفاقهما فى الإنشائية لفظاً ومعنى وكذا فصل جملة « قل من رب » وبين « قل أفاتخذتم ... » و « قل هل يستوى » لاتفاقهما فى الإنشائية لفظاً ومعنى .

وعبر عن الإيمان أيضاً بالنور على جهة الاستعارة التصريحية حيث شبه الإيمان بالنور فى الهداية حيث إن الإيمان فيه هداية إلى معرفة الله تعالى والنور

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٥/٤٠٢ ؛ وروح المعانى ١٣/١٨٣ ــ ١٨٤ ؛ وحاشية زاده ٣/١١٤ .

(٢) انظر السابق .

(٣) البحر المحيط ٥/٣٨٠ .

فيه هداية إلى الطريق والسر فى « جمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ككفر النصارى والمجوس وكفر غيرهم»[١] .

ثم انتقل القرآن من اسلوب الخطاب فى قوله تعالى « أفاتخذتم من دونه أولياء » إلى الغيبة فى قوله تعالى « أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » على جهة الالتفات ؛ وذلك إعراضاً عنهم وتنبيهاً على توبيخهم فى جعلهم شركاء لله وتعجباً منهم وانكاراً عليهم [٢] و(أم) فى قوله « أم جعلوا .. » منقطعة تقدر بـــ (بل) والهمزة التى للاستفهام الإنكارى والذى يراد به لم يكن لأحد الخلق[٣] .

فالظاهر من قوله تعالى «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه » أن الاستفهام الانكارى للجعل ؛ لأنه الذى ولى الهمزة المقدرة والجعل نفسه أمر واقع لا يتعلق به الانكار ، وإنما الإنكار يتوجه إلى الفعل وفاعله « خلقوا » « والذى وقع « صفة الشركاء » يعنى : أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله فتشابه عليهم خلق الله وخلقهم حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه وفاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد إذ لا فرق بين خالق وخالق ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على مايقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على مايقدر عليه الخالق » [٤] .

---

(١) روح المعانى ١٨٤/١٣ أحال أبو السعود إلى بداية الأنعام فى بيان السر فى جمع الظلمات وإفراد النور وبالرجوع وجدناه يقول : « وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها على النور لتقدم الاعلام على الملكات مع ما فيه من رعاية المقابلة بين القرينتن» تفسير ابى السعود ٥/٣ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥/ ٣٨٠ .

(٣) انظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٥/ ٤٠٣ .

(٤) الكشاف ٢/ ٣٥٥ ، وانظر مفاتيح الغيب ٣٧/١٩ وتفسير ابى السعود ٤/ ٢٠٥ .

والجعل كما قيل : « لفظ عام فى الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسار أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه ... الخامس : الحكم بالشئ على الشئ حقا أو باطلاً، فأما الحق فنحو قوله تعالى « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » [القصص : ٧] وأما الباطل فنحو قوله عز وجل [١] « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » [الأنعام : ١٣٦] فجعلهم لله شركاء بعد من الباطل .

فالفعل « خلقوا » المسند إلى الضمير العائد إلى الأصنام والذى هو فى الظاهر مشبه منفى بواسطة الهمزة الواقعة بعد (أم) والتى تسلطت على هذا الإسناد ، أى لم يكن للأصنام خلق . وأما الكاف فهى للتشبيه ، والفعل « خلقه » اسند الخلق فيه إلى الضمير العائد إلى الله سبحانه وتعالى والذى هو مشبه به للمشبه المنفى ، وكون المشبه منفياً لا ينعقد حينئذ التشبيه لأنه غير مستوفى الأركان ، لأن الغرض من انعقاد التشبيه إلحاق المشبه بالمشبه به فى وجه الشبه، وأيضاً لا ينعقد التشابه ؛ لأن الله تعالى يريد أن يقول لهم : إن الأصنام لم تخلق خلقاً شبيهاً بما خلق الله حتى التبس عليكم الخلق فلم تفرقوا بين خلق الله وخلق الأصنام فتركتم عبادة الله واتبعتم عبادة الأصنام ولذا قال « فتشابه الخلق عليهم فأسند التشابه إلى الخلــق والذى تعلق به الجار والمجرور فى « عليهم » ولم يقل فتشابه الخلق على المشركين «وساق ذلك فى اسلوب الغيبة إعلاماً بأنهم أهل للاعراض عنهم لكونهم فى عداد البهائم لقولهم مالا يعقل بوجه من الوجوه »[٢].

ويمكن أن يقال : إن اقرارهم بأن الله تعالى قد خلق السماوات والأرض لم يكن متبوعاً بوقوع الإيمان منهم ، فعلام يدل هذا ؟ وفى الجواب عن ذلك ــ والله

- (١) المفردات للراغب (جعل) / ١٣١ ــ ١٣٢ .

- (٢) نظم الدرر ٣١٣/١٠ .

أعلم ـ أنهم بعد الاقرار قام إبليس بطمس هذه الحقيقة فى نفوسهم فلم يتجهوا إلى إعلان الإيمان ،أو أنهم مع معرفتهم بهذه الحقيقة كابروا وعاندوا ، ولذا جاء ختام الآية بتوكيد بما جاء فى أولها من تذكيرهم بالخالق الحق ليرتدعوا عن تمسكهم بعبادة الأصنام فأمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبليغهم بذلك فقال « قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار » يقول البقاعى ، ولما كان من المعلوم قطعاً أن جوابهم أن الخلق كله الله ولم يمنعهم ذلك من تأله سواه أمره أن يجيبهم معرضاً عن جوابهم فقال «قل الله » أى الملك الأعلى خالق كل شئ إشارة إلى أنهم فى احوالهم كالمنكر لذلك عناداً أو خرقاً لسياج الحياء وهتكاً لجلباب الصيانه وإذ قد ثبت أنه المتفرد بالخلق وجب أن يفرد بالتأله فقال « وهو الواحد » الذى لا يجانسه شئ ... (القهار الذى كل شئ تحت قهره) [1].

---

(١) السابق ١٠/٣١٣ ـ ٣١٤ .

إقامة سيدنا إبراهيم الحجة على قومه

اقتضت حكمة الله تعالى رحمة بعباده ألا يتركهم لإبليس وأعوانه فارسل إليهم انبياءه ورسله لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى وحده وكلما تقادم العهد بينهم وبين وفاة نبيهم لبس عليهم إبليس بأن زين لهم الثقة فى الصالحين منهم ، وبعد وفاتهم زين لهم صناعة تماثيل لهم ، ثم بعد ذلك زين لهم عبادتها من دون الله ، وهذا هو الشأن « مع قوم سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ فقد كانوا يعبدون أصناماً من دون الله ، وقد حكى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » [١] إلى أن قال « قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » [٢] .

وفى قوله تعالى :« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»[٣] .

وقد اعتمد سيدنا إبراهيم فى دعوته لأبيه وقومه على الحوار المعتمد على خطاب العقول والأفهام ؛ لأن عبادتهم للأصنام كانت قارة فى نفوسهم ومسيطرة على عقولهم وأفكارهم ومالكة عليهم شغاف قلوبهم ، فقد عبدوها تقليداً لآبائهم

---

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٥٦ .

(٢) الأنبياء : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣) الشعراء : ٧٢ ـ ٧٣ .

دون تفكر فى شأنها ، وقد اعتمد على الأسلوب الأمثل فلم يزجرهم ولم يوبخهم بعبارات منفرة إنما خاطب العقول ليتمكن من إزالة الحجب والغشاوات الكثيفة التى توارت وراءها أنوار الحقيقة فاستنطقهم بقوله فى سورة الشعراء بحقيقة ما يعبدون بهذا الاستفهام « ماتعبدون » مع أنه ـ عليه السلام ـ على دراية بحقيقة ما يعبدون وذلك لأنه أراد تقريرهم وتحقير هذا المعبود ليريهم أن مايعبدونه ليس مستحقاً للعبادة لما يترتب على جوابهم من أوصاف هذه المعبودات التى هى منافية للعبادة [١] .

فالاستفهام أريد به التقرير والتحقير ، والغرض منه رجوع المخاطب إلى نفسه ليتنبه إلى ما هو فيه من خطأ ، وجاء جوابهم صريحاً بحقيقة مايعبدون ولكنهم قد أطنبوا فى هذا الجواب كما قال الزمخشرى : « فإن قلت : ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا أصناماً ... قلت هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب ابراهيم وعلى ما قصدوه من اظهار ما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار ... وإنما قالوا نظل ؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل»[٢] .

وأما فى سورة الأنبياء فقد خاطبهم أيضاً بصيغة الاستفهام ولكن الاستفهام هنا ليس بـ (ما) الداخلة على المستفهم عنه إنما السؤال بـ (ما) الداخلة على اسم الإشارة والذى أشير به إلى التماثيل والتى عبر عن عبادتهم لها بالعكوف وهذا كما يقول الزمخشرى : « تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم واجلالهم لها » [٣] .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢٣/٧ .

(٢) الكشاف : ٣/ ١١٦ .

(٣) الكشاف ٥٧٥/٢ ، وانظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٤٤٨/٦ .

ويرى الشهاب أن التحقير مستفاد من دلالة اسم الإشارة وليس من دلالة (ما) فيقول : «قوله تحقير لشأنها ، التحقير من الإشارة بما يشار به للقريب » [١] ، وليس هناك ما يمنع من إفادة التحقير من دلالة (ما) واسم الإشارة معاً فاسم الإشارة يدل على أنه أوقفهم على حقيقة الأصنام وأنهم قد ادركوا صحة قوله . ولذلك لم يجدوا جواباً إلا أنهم قد قلدوا آباءهم فى عبادتهم لها « قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » وفى هذا يقول أبو السعود : « أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله ـ عليه السلام ـ الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه ـ عليه السلام ـ إياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا إلى التقليد فأبطله ـ عليه السلام ـ على طريقة التوكيد القسمى حيث « قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » [٢] .

وأما فى الشعراء فجاء جوابهم بتقليد آبائهم بعد إقامة الحجة عليهم فى قوله تعالى : «قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »

أما فى الأنبياء فقد اتبع جوابهم بالتقليد لآبائهم أنهم فى ضلال مبين ثم بين لهم بعض مظاهر قدرة الله فى خلق السماوات والأرض إلى أن قال « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ، ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

والقصد من وراء ذلك القول بأن حواره لهم فى الشعراء سابق على حواره لهم فى الأنبياء بدلالة أنه بعدما أجابوه بعبادتهم للأصنام رتب على جوابهم سؤالاً آخر أريد بهذا السؤال وضع أيديهم على موطن الداء ليصل بهم إلى العلاج الأمثل

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٤٤٨ .

(٢) تفسير أبى السعود ٥/٧٢ .

وذلك بمحاولة التغلغل إلى نفوسهم وعقولهم ويدركوا ان ماهم عليه من عبادة الأصنام ليس صحيحاً فيتركوا عبادتها ويتجهوا إلى عبادة الله تعالى وحده فقال تعالى « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » .

بدأ سؤاله عن سماع الأصناع لهم مقدماً له على النفع والضر ، لأن السمع هو أول مدارك الاحساس ؛ ولأن من صفات الإله الحق إحاطة سمعه بكل ما هو مسموع ليدرك حاجة كل محتاج ويغيث كل ملهوف ، والمعلوم من شأن الأصنام أنها عبارة عن جمادات لا تسمع لهم صوتاً ولاترى لهم وجهاً ولاتجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً كما قال تعالى عنها فى سورة الأعراف » إنَّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ » [1] وكما حكى القرآن عنه أيضاً فى خطابه لأبيه يقول تعالى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا » [2] وكما قال تعالى أيضاً فى قوله تعالى : «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [3] .

فقد أراد ـ عليه السلام ـ تنبيههم على فساد مذهبهم ، وذلك أن العابد يلتجئ دائماً إلى من يعبده فى كل النوازل بالدعاء ليعلم المعبود مراده ثم يستجيب له فى كل مايريد ، فإذا كان شأن هذه المعبودات أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تحس

---

(١) الأعراف : ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢) مريم : ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) العنكبوت : ١٦ ـ ١٧ .

ولا تدرك وجودهم عندها ولا وقت عبادتهم لها ولا بعد انصرافهم عنها ولاتملك لهم رزقاً ولا تملك لهم شيئاً فلماذا يصرون على التمسك بعبادتها ؟ [١] .

ولما كان المراد بيان عدم سماع الأصنام لدعائهم كان « لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه « هل يسمعون دعاءكم ، وقرأ قتادة « يُسْمِعُوْنَكم » أى يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك ؟ وجاء مضارعاً مع إيقاعه فى إذْ على حكاية الحال الماضية ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها وقولوا هل سمعوا أو اسمعوا قط ؟ » [٢] ويضيف الشهاب قائلاً : «سمع إذا دخل على مسموع تعدى إلى واحد نحو سمعت كلام زيد ، وإن دخل على غير مسموع ذهب الفارسى إلى أنه يتعدى إلى اثنين إلا أنه لابد أن يكون الثانى مما يدل على صوت كسمعت زيداً يقول كذا ، وذهب غيره على أنه فى ذلك متعدٍ إلى واحد ، فإن كان معرفة فالجملة حال ، وإن كان نكرة فصفة وجوز فيها البدلية أيضاً ، وغذا علق بالذات أفاد السماع بغير واسطة ، فقوله « يسمعون دعاءكم » إشارة إلى أنه متعدٍ لواحد داخل على مسموع مقدر وقوله « أو يسمعونكم إذْ تدعون» ... إشارة إلى أنه من هذا القبيل الثانى داخل على غير مسموع وبعده جملة مقدرة وإعرابها كما سمعت فقوله فحذف ذلك أى المضاف أو جملة تدعون » [٣] .

وبناء على دخول (إذْ) على المضارع مع اختصاصها بالدخول على الماضى أن يكون مقتضى الظاهر أن القرآن يريد الماضى فى قوله « إذْ تدعون أى انتفاء السماع فى الماضى والحاضر والمستقبل وقت دعائهم لها ، وبناءً على انتفاء السماع فى الماضى والحاضر والمستقبل ينتفى عنها جلب النفع ودفع

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٤٣/٢٤ .

(٢) الكشاف ١١٦/٣ وانظر حاشية زاده ٤٧٢/٣ .

(٣) حاشية الشهاب ١٧٨/٧ ــ ١٨٨ وانظر روح المعانى ١٣٩/١٩ .

الضر أيضاً فى كل الأوقات ولذلك جاء قوله تعالى «أو ينفعونكم أو يضرون » معطوفاً على الاستفهام بـ « هل » وتقدر « هل » بعد (أو) وجواب الاستفهام إما أن يكون بالاثبات بـ (نعم) أو بالنفى بـ (لا) فإذا جاء الجواب بـ (نعم) ثبت كذبهم ، وبالتالى تقام عليهم الحجة ، ولو أجابوا بـ (لا) ثبت خطؤهم وبذلك تقام الحجة عليهم ، فعدلوا عن أى من الجوابين بثالث هو تقليدهم لأبائهم ، يقول أبو حيان : « هذه حيدة عن جواب الاستفهام ؛ لأنهم لو قالوا يسمعوننا ، ينفعوننا ويضرونا فضحوا أنفسهم بالكذب الذى لا يمترى فيه ، ولو قالوا يسمعوننا لا يضرونا أسجلوا على أنفسهم بالخطأ المحض فعدلوا إلى التقليد البحت لآبائهم فى عبادتها من غير برهان ولا حجة » [1] .

ولا يخفى السر فى التعبير بالمضارع فى « ينفعونكم أو يضرون » وأيضاً الطباق بينهما ، وحذف المفعول من « يضرون » فلم يقل « يضرونكم » كما قال « يسمعونكم » «ينفعونكم » للعلم به .

وأما فى الأنبياء فقد استمر الحوار إلى أن أنكر عليهم عبادتهم للأصنام وذلك فى قوله تعالى : « قال أفتعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » فقوله « أفتعبدون ... » وقع فى محل نصب مفعول به لأنه مقول القول . وصدر مقول القول بالاستفهام بالهمزة المراد بها الانكار لأنه ـ عليه السلام ـ كان على علم بعدم أحقية الأصنام للعبادة فانكر عليهم وتهكم بهم بهذا الاستفهام والأمر المنكر هنا هو اصرارهم وتمسكهم بعبادة الأصنام من دون الله تعالى ، ودلالة الاصرار فهمت من دلالة التعبير بالمضارع فى « أفتعبدون » وأما الفاء فهى للعطف على مقدر يقتضيه المقام والمقدر هو أتعلمون ذلك فتعبدون [2] . وهذا بخلاف ما جاء

---

(١) البحر المحيط ٢٣/٧ وانظر روح المعانى ١٤٠/١٩ .

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٧٦/٦ .

فى الشعراء فكما عرفنا أن الاستفهام بـ (هل) دخل على السماع وما عطف عليه من النفع والضر .

وقوله « من دون الله » متعلق بالمضارع فى قوله « أفتعبدون » للدلالة على أن ما يعبدونه دون الله تعالى ، وهذا أيضاً لم يرد فى آية الشعراء ؛ لأن آية الشعراء قد ركز فيها على انتفاء السماع وما يستلزم ذلك من النفع والضر والمضارع المسند إلى الضمير العائد على قومه قد وقع على (ما) فى قوله « ما لاينفعكم » فهى فى محل نصب مفعول به ، وعبر عن الأصنام بـ (ما) دون (من) لأنها جمادات لا تعقل وأيضاً ارادة تحقير ما يعبدونه .

وأسند النفع إلى الضمير العائد إلى (ما) والواقع عليهم ، والواقع أيضاً على كلمة (شئ) فشيئاً يجوز أن تكون مفعولاً ثانياً والأول الكاف ودخلت أداة النفى على المسند لإفادة عدم نفع الأصنام لهم بأى نوع من أنواع النفع عظيماً أو حقيراً ، كبيرا أو صغير ، فقد اعتقدوا فيها ذلك فنفى ذلك عنها . وبالتالى لا يجوز أن تعبد من دون الله ؛ لأن ما ينزل بهم من الخير والرزق وغير ذلك مما ينسبوه إلى الأصنام على اعتبار أنهم يتخذونها آلهة من دون الله ، هو من الله ، ولم يرد فى الشعراء الدلالة على نفى العظيم والحقير أو الكبير والصغير بكلمة (شئ) .

ولما اعتقدوا فيها الألوهية والإله يملك النفع والضر معاً لم يقف القرآن عند التعبير بـ «لاينفعكم شيئاً » إنما عطف عليه قوله تعالى « ولا يضركم » ولئلا يتوهم أن نفى النفع يرتب عليه أنها تضر ، وفى قوله « لايضركم » إيجاز بالحذف أى (لايضركم شيئاً) وحذف لدلالة ماقبله عليه ؛ لأن من طبيعة الإنسان التضجر من أدنى ضر فالنفع والضر هنا جاء كل منهما منفياً بـ (لا) بخلاف ما فى الشعراء التى يمكن أن يفهم النفى من دلالة (هل) الاستفهامية وهناك فرق بين الدلالتين .

وقدم النفع على الضر ؛ لأنهم « كانوا فى محل ضرورة بسبب تكسير أصنامهم راجين من ينفعهم فى ذلك قدم النفع »[١] أولأن النفع هو أول ما تهفو إليه النفوس من المعبود .

ويبدو لنا أن قومه ـ عليه السلام ـ كانوا معاندين أشد العناد فقد أقيمت عليهم الحجة بما رأوا وشاهدوا من تكسير الأصنام ولم يتركوا عبادة هذه الأصنام إنما فكروا فى الانتقام منه ، وأنه ـ عليه السلام ـ قد ضاق بهم ذرعاً مما دعاه إلى أن يتبع ذلك بقوله تعالى «أف لكم ولما تعبدون من دون الله » فكلمة « أف » كما قال الزمخشرى : « صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أى لكم ولآلهتكم هذا التأفف»[٢] . والفاعل لـ « أف » ضمير مستتر تقديره أنا و « لكم » متعلق بـ (أف) وكان يمكن أن يقول « أف لكم ولما تعبدون من دونه » بالتعبير عن الله بالضمير بدلاً من الاسم الظاهر فى قوله « من دون الله » . فقد سبق ذكره فى قوله « افتعبدون من دون الله » وذلك لـ « إظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح ما فعلوا»[٣] .

والهمزة فى قوله « أفلا تعقلون » للاستفهام المراد به الانكار والفاء حرف عطف والمعطوف عليه استئناف مقدار أى الا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم[٤] فهو يقصد أن يحضهم على التفكر والتعقل أى النظر فى أحوال الأصنام بالعقل دون الانسياق وراء تقليد الآباء.

---

(١) نظم الدرر ١٢/٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٢) الكشاف ٢/٥٧٨ .

(٣) تفسير أبى السعود ٤/٦٨١ وانظر روح المعانى ١٧/٩٩ .

(٤) انظر الجدول ١٧/٤٨ وانظر روح المعانى المعانى ١٧/٩٩ .

ومثل هذا الحوار هو الأمثل فى الدعوة إلى الله وإقامة الحجة على خصوم الإسلام فى العصر الحديث فهو بحق يعد « من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وزممنا الاستدلال لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التى دفعها الله تعالى ، وذماً لطريقة إبراهيم ـ عليه السلام ـ التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم ـ عليه السلام ـ بقوله أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » أراد به أن الباطل لا يتغير قديما وحديثا ولا بأن يكون من فاعليه كثرة أو قلة » [1] .

والغرض من هذا البيان القرآنى أن القرآن أراد خطاب كفار مكة بما خاطب الله تعالى به قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما بينهما من أوجه التشابه ، فقد أمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتلو هذه الآيات على مسامع أهل مكة فقال « واتل عليهم نبا إبراهيم » لأن كفار مكة قد عبدوا الأصنام مثل ما عبدها قوم إبراهيم ، ومازال الخطاب موجهاً إلى كل من ترك عبادة الله وعن ماسواه فى العصر الحديث ومايتلوه من عصور .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٤ / ١٤٣ .

ربط الإيمان بالمكاسب الدنيوية

تنوع الناس أمام دعوة الإسلام إلى فريق باع دنياه بآخرته وآخر باع آخرته بدنياه ، وثالث أعلن إسلامه بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، ورابع ربط التمسك بالإسلام بقدر ما يحصل على مكاسب دنيوية ، وقد وضح القرآن كل ذلك وفصله ، فعن الفريق الأول ، يقول الله تبارك وتعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ [1] ، وقال : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » [2] .

ثم انتقل القرآن لبيان الفريق الرابع بعد هذه الآية : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ » [3] .

ذكر فى سبب نزول قوله « ومن الناس من يعبد الله على حرف » رأيين : الأول : أن أعراباً أو ناساً كانوا يقدمون من قبائل العرب أو البادية على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويعلنوا إسلامهم ، فإذا صحت أبدانهم ونتجت أفراسهم وولدت نساؤهم غلماناً رضوا بالإسلام واطمأنوا إليه ، وإن أصيبوا بالأمراض والفقر وتغيرت أحوالهم إلى الأسوء زين الشيطان لهم العودة إلى

---

(١) الحج : ٣ .

(٢) الحج : ٨ ــ ١٠ .

(٣) الحج : ١١ ــ ١٣ .

الكفر مرة أخرى [١] . والثانى : أنها نزلت فى المنافقين [٢] يقول الرازى « واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ماذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال « ومن الناس من يعبد الله على حرف » [٣] .

والآية ليست فى المنافقين ؛ لأن المنافق لايعلق دوام اعلان الإسلام على مايحصل عليه إنما هو مستمر على النفاق حصل أو لم يحصل ؛ ولأن المنافق فى الحقيقة كافر فهو يظهر الإسلام تقية لنفسه ولما له ، أما هؤلاء فيعلنون إسلامهم ويربطون استمراره على ما تكون عليه أحوالهم من الخير الذى يحصلون عليه ، فإذا لم يحصلوا على خير ارتدوا ، ولعل القول بالنفاق مرده إلى أن مافعلوه قريب الشبه بأحوال المنافقين .

والواو فى قوله « ومن الناس » استئنافية ؛ لأن القرآن استأنف الحديث عن نوع آخر من أنواع الناس مختلف عن سابقه ودل على ذلك أيضاً التعبير بـ (من) التى تفيد التبعيض ، والجار والمجرور خبر مقدم و « من » فى محل رفع مبتدأ مؤخر و « يعبد الله على حرف» لا محل لها صلة (من) .

وعبر القرآن بـ (مَنْ) لارادة التحقير لمن يعبد الله تعالى على هذه الحالة وهى « على حرف » فهى « حال من فاعل يعبد » [٤] ، فالقرآن عبر عن عبادة هذه حالها وهذا التعبير جاء على جهة الاستعارة فقد شبه القرآن حال من يعبد الله تعالى على قلق واضطراب من غير ثبات وطمأنينة قلب بحال من يكون على

---

(١) انظر جامع البيان ١١٦/٩ والكشاف ٧/٣ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٠٣/٣ والبحر المحيط ٣٥٥/٦ .

(٢) انظر جامع البيان ١١٦/٩ ومفاتيح الغيب ١٤/٢٣ وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٠٣ . والبحر المحيط ٣٥٥/٦ وحاشية زاده ٣/ ٣٧٦ .

(٣) مفاتيح الغيب للرازى ١٤/٢٣ .

(٤) حاشية زادة ٣/ ٣٧٦

طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قرّ واطمأن وإلا فر هارباً [١] ، فالمستعار له حال من يعبد الله تعالى على قلق واضطراب فإن أعطى الخير من المال والولد وغير ذلك ثبت على عبادة ربه وداوم عليها وإن لم يعط ذلك ترك العبادة والمستعار منه من كان على جانب وناحية من الجيش يرقب المعركة فإن أحس بالنصر والغنيمة ثبت وإن أحس بالهزيمة فرّ والعلاقة بينهما عدم الثبات على حالتى الحصول على الدنيا وعدم الحصول عليها » وقد أشير إلى تلك العلاقة فى قوله تعالى « فإن أصابه خير اطمان به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، وبذلك تكون الفاء عاطفة مفسرة[٢] والقرينة حالية .

وأما (إنْ) فهى أداة شرط و(أصابه) فعل الشرط والهاء فى محل نصب مفعول به و(الخير) فاعل ، وجواب الشرط (اطمأن به) وعبر بـ (إنْ) دون (إذا) لأنه لو عبر بإذا لقطع بنزول الخير وبذلك يقع الاطمئنان وهذا يتنافى مع عبادته لله على حرف فالتعبير بـ (إنْ) مما يتناسب مع عبادته لله تعالى على حرف ،وأيضاً فى قوله « وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » جئ بـ (إنْ) دون (إذا) لأنه لا قطع بنزول الفتنة فقد تنزل وقد لا تنزل فجئ بـ (إنْ) فقد يكون الإنسان صحيحاً فترة ثم ينزل به المرض وقد يكون غنيا وينزل به الفقر. وهذه الأمور تابعة لما قدره الله تعالى للإنسان من خير أو شر ... ، ومقتضى الظاهر مقابلة الخير بالشر لكن قابل الخير بالفتنة لأنه ليس حجب الولد عن الإنسان شر وليس قلة المال فى يده شر .. فقد يكون فى عدم وجودهما خير عظيم ، إنما قلة المال أو الولد الذكر .. يكون على جهة الفتنة أى الابتلاء ، لأن وجود الدنيا وعدم وجودها يعد ابتلاء كما قال تعالى « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٧ وحاشية زاده ٣/ ٣٧٦ ، وحاشية الشهاب ٦/٤٩٦ وروح المعانى للالوسى ١٨٤/١٧ .

(٢) الحج : ٣ .

فيقول ربى اكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » [١] ، ويقول الرازى « قال مقاتل : الخير هو ضد الشر فلم قال تعالى « فإنْ أصابه خير اطمان به » وكان يجب أن يقول : وإن أصابه شر انقلب على وجهه ؟ الجواب : لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لايفيد فيه القبح » [٢] ، ويقول شيخ زاده » ولم يقل وإن أصابه شر مع أنه هو المقابل للخير لأن ما يتنفر عنه الطبع ليس شراً فى نفسه بل هو سبب القربة ورفع الدرجة بشرط التسليم والرضا بالقضاء » [٣] .

فالقرآن عبر عن الابتلاء بالفتنة على جهة الاستعارة التصريحية الأصلية حيث شبه ما ينزل بالإنسان من المصائب من قلة المال والولد ... بإذابة الذهب والفضة لمعرفة جيد كل منهما من رديئة .

وعبر القرآن عن ترك الإنسان للإسلام وارتداده عنه بالانقلاب على الوجه على جهة الاستعارة حيث شبه حال الإنسان فى عدم ثباته على الإسلام وارتداده عنه بحال من كان فى جهة ثم انصرف وتحول عنها إلى حالة أخرى ، لأن القلب فى الحقيقة » تحويل الشئ عن وجهه ... [و] قلب الشئ وقلبه : حوله ظهراً لبطن » [٤] فتعلق الجار والمجرور بقوله «انقلب » يدل على أنه قد تحول بوجهه إلى عكس أو ضد ما كان عليه وهذا التحول غير مقصود إنما المقصود أنه ارتد من الإيمان وعاد إلى الكفر مرة أخرى .

وجاء قوله تعالى « وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، مقابلة لقوله « فإن أصابه خير اطمأن به » وذلك لتصوير حالة هذا الإنسان بعدم الثبات على

---

(١) الفجر : ١٥ ــ ١٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٣/٢٣ .

(٣) حاشية زاده ٣/ ٣٧٦ .

(٤) لسان العرب ٥/ ٣٧١٣ (قلب) .

الإيمان وعدم الثقة فى الله تعالى وعدم الصبر على البلاء وعدم الشكر على النعماء .

وقوله « خسر الدنيا والآخرة » إما جملة مستأنفة أو بدل من انقلب .. أو حال من فاعله والمعنى فقد الدنيا والآخرة وضيعهما حيث فاته ما يسره فيهما [١] ، ومثل هذا الإنسان لاتكون نهايته السعادة الأخروية فى رضوان الله تعالى ورحمته وإنما تكون نهايته الخسران والبوار ولذا أخبر تعالى عن ذلك فقال « خسر الدنيا والآخرة » ويلاحظ أن القرآن عبر عن فقد هذا الإنسان دنياه وآخرته بالخسران على جهة الاستعارة حيث شبه عدم انتفاعه بالدنيا وما فيها من عمل كالإيمان والعمل الصالح والثبات على الاسلام بحال التاجر الذى أفسد تجارته بيده فرجع من تجارته بلا أى فائدة والعلاقة هى فساد التصرف وعدم اعمال العقل فيما يعود عليه بالنفع وعدم الحصول على مايفيد فى الدنيا والآخرة كخسران المال والأهل والولد والحرث ... [٢] .

واشار إلى الخسران باسم الاشارة الذى للبعيد للتعظيم أى لا خسران أعظم من هذا الخسران (المبين) أى البين الواضح وقصر القرآن الخسران المبين على خسرانهم وطريق القصر تعريف الطرفين « ذلك هو الضلال البعيد » وضمير الفصل لتقوية وتوكيد الخسران المبين وهو قصر ادعائى وذلك لعدم الاعتداد بأى خسران آخر .

وأما قوله تعالى « يدعو من دون الله مالايضره ومالا ينفعه ، فقد جئ به على جهة الاستئناف لبيان عظم الخسران ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل انقلب وما تقدمه اعتراض[٣] .

---

(١) انظر البحر المحيط ٣٥٥/٦ وحاشية الشهاب ٤٩٦/٦ وروح المعانى ١٨٥/١٧ .

(٢) انظر التحرير و التنوير : ٢١٤/١٧ .

(٣) تفسير ابى السعود ، وانظر روح المعانى ١٨٥/١٧ وانظر نظم الدرر ١٨/١٣ .

ولا يخفى السر فى التعبير بالمضارع فى قوله « يعبد ويدعو » حيث يراد به التجدد والحدوث .

وعبر القرآن عن الإيمان بالله بقوله « يعبد » وعن عبادة الأصنام ؛ « يدعو » ؛ لأن العبادة تدل على غاية الخضوع والتذلل ولا تكون إلا لله ، وأما الدعاء فهو وإن عبر القرآن به عن العبادة أيضاً ـ كما سبق ـ على اعتبار أن العابد إنما ينحصر غرضه من العبادة بالتوجه إلى المعبود فى كل ما يحتاج فى الشدة أو الرخاء إلا أن الكفار يتوجهون إلى الأصنام بطلب مايريدون اعتقاداً فيهم بأنهم شفعاء عند الله وواسطة بين الخلق وبين الله فالعبادة أوسع وأشمل من الدعاء .

وأسند القرآن الدعاء إلى الضمير العائد إلى الذى انقلب على وجهه والعائد أيضاً إلى (مَنْ) فى قوله « ومن الناس مَنْ يعبد الله على حرف » وذلك للدلالة على أن هذا الإنسان قد ترك عبادة الله تعالى ورجع إلى عبادة مالايضر ومالا ينفع لأجل متاع دنيوى أى أن عبادته لله تعالى قد ارتبطت بما يحصل عليه من متاع الدنيا ، وهذا فى الحقيقة ليس من الإيمان فى شئ . وقوله « من دون الله ومتعلق : (يدعو) .

والدعاء المسند إلى الضمير قد وقع على (ما) أى أن (ما) فى محل نصب مفعول به ، ويعبر بها لغير العاقل وذلك للدلالة على أن المراد بها الأصنام ولم يقل : ويدعو من دون الله أصناماً تحقيراً لشأنها وأنها إذا كانت بهذه الصفة لا يجوز الاتجاه إليها بالعبادة والدعاء وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب .

والتعبير بالمضارع فى قوله « مالا يضره ومالا ينفعه » للدلالة على شدة غباء من يعبدها لأنها قد انتفى عنها الضر والنفع فى أى وقت من الأوقات ، انتفى عنها الضر والنفع فى الدنيا وأيضاً فى الآخرة فلا تملك لهم شفاعة كما ادعوا .

ولما كان فرار هذا الإنسان من عبادة الله تعالى بسبب مايعرض له من الابتلاء الذى يعد فى الحقيقة ضراً قدم القرآن الضر على النفع موضحاً له أن من رجع إليه لا يملك أن يدفع عنه ما فرّ منه [١] ؛ لأن الضر والنفع فى الحقيقة إنما هو بيد الله تعالى يختبر الله به من يشاء من عباده كما قال تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ »[٢] وكما قال تعالى «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[٣] .

وقيل : « ولما قدم الضر لأنه من الأعذار المقبولة فى ارتكاب الخطأ أتبعه النفع قطعاً لكل مقال»[٤] .

وعبادة الإنسان غير الله تعالى يعد من أكبر الذنوب وأعظمها ولذلك أشار إليها باسم الإشارة الذى للبعيد فى قوله « ذلك هو الضلال البعيد » .

والضلال فى الحقيقة الذى هو الشرك لا يوصف بالقرب أو البعد لأنهما يكونان فيما يقاس بالمسافة ولذا فإن قوله تعالى « ذلك هو الضلال البعيد » جاء على جهة الاستعارة كما قال الزمخشرى « واستعير الضلال البعيد من ضلال من ابعد فى التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلاله » [٥] ، فالمستعار له الضال عن الإيمان إلى الكفر ، والمستعار منه ضلال عن أبعد فى التيه ضالاً فطالت وبعدت

---

(١) انظر التفسير القرآنى ٥/ ٩٩٦ .

(٢) البقرة : ٢١٤ .

(٣) الأنبياء : ٣٥ .

(٤) نظم الدرر : ١٣ / ١٩ .

(٥) الكشاف ٣/٧ و انظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٦/٤٩٧ .

مسافة ضلاله وقد ذكر الشهاب فى كلامه على البيضاوى أن هذه استعارة تصريحية وقيل مكنية [١].

واسم الإشارة (ذلك) للبعيد أشير به إلى عبادة الكفار للأصنام والتى قد انتفى عنها الضر والنفع ، وذلك لإرادة تعظيم هذا الضلال أى لاضلال أعظم من هذا الضلال الموصوف بالبعيد .

ولما كان المخاطبون معتقدين أنهم على الحق فى عبادتهم للأصنام قصر القرآن الضلال البعيد على اسم الاشارة _ذلك) فالضلال البعيد مقصور واسم الإشارة مقصور عليه ، و(هو) ضمير فصل للمبالغة فى توكيد ذلك وتقريره .

وبهذا يكون القرآن قد نفى عن الأصنام الضر والنفع ، ثم أثبتهما لها فى قوله تعالى «يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير » مما يدعو إلى القول بالتناقض ، الذى جعل العلامة الزمخشرى يدفع القول بالتناقض حيث يرى اختلاف القائلين فى الآيتين [٢].

وأما الرازى فذكر فى ذلك وجوهاً مؤداها أن عبادتها سبب لنسبة الضرر إليها ، أو أن ذلك على جهة الفرض ، أو أن ذلك يرجع إلى اختلاف القائلين[٣] .

وأما أبو حيان فيرد ذلك إلى اختلاف المتعلق فى الآيتين[٤] وذكر جميع الوجوه التى ذكرت فذكر رأى الزمخشرى وغيره ممن ذكرهم الرازى [٥] وأما الشهاب فقد ذكر رأياً وجيهاً هو أن النفى باعتبار ما فى الأمر أى ما عليه الأصنام من عدم الضر والنفع وأما الاثبات فباعتبار زعم الكفار الباطل فقال « قوله (الذى

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٤٩٧/٦

(٢) أنظر الكشاف ٧/٣ ــ ٨ .

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٢٣/ ١٥ ــ ١٦ .

(٤) أنظر البحر المحيط ٣٥٥/٦ ــ ٣٥٦ .

(٥) انظر البحر المحيط ٣٥٦/٦ .

يتوقع بعبادته وهو الشفاعة) إشارة إلى توجيه ما فى النظم من أنه نفى عنه النفع أولاً وكون ضره أقرب من نفعه يقتضى ثبوت النفع له وهما متنافيان ، فدفع التنافى بأن النفى باعتبار ما فى نفس الأمر والاثبات باعتبار زعمهم الباطل فلا تنافى » [١] .

واللام فى قوله « لبئس المولى ولبئس العشير » وقعت فى جواب القسم والتقدير والله لبئس المولى ولبئس العشير والسر فى التعبير بأسلوب القسم توكيد عدم صلاحية الأصنام للولاية والعشرة . ويمكن أن يقال : لم جاء ختم هذه الآية بأسلوب الذم للأصنام ؟ .

وفى الجواب عن ذلك يقال : إن العابد يعتقد فى معبوده تولى أمره وشئونه وتكون درجة القربى بينهما على اعتبار أن هذا المعبود يملك نفعه وضره فى الدنيا والآخرة ، فإذا كان هذا المعبود قد انتفى عنه كل من الضر والنفع ولا يصلح لرتبة الألوهية أو حتى رتبة البشرية مما لا شك فيه لدى العاقل أن يذم هذا المعبود كما قيل « ذم لهؤلاء المعبودين لامن حيث ذواتهم واشخاصهم وإنما من حيث العون الذى ينتظره العابدون منهم فهم لا يملكون لهم من الله شيئاً » [٢] .

فإفادة نفع الأصنام وضرها فهم من دلالة صيغة التفضيل ولما كانت عارية من ذلك كان التعبير بصيغة التفضيل للمبالغة فى تقبيح حال الأصنام وذمها [٣] ولذا اتبع ذلك بقوله «لبئس المولى ولبئس العشير » .

---

(١) حاشية الشهاب ٦/٤٩٧ .

(٢) التفسير القرآنى ٥/٩٩٨ .

(٣) انظر تفسير أبى السعود /

بيان القرآن لمشهد من مشاهد يوم القيامة

يوم القيامة هو ذلك اليوم الذى يحاسب الله تعالى فيه العباد على أعمالهم وهو من الأمور الغيبية التى آمن بها من شرح الله صوره للإسلام ، وكذب بها أهل الكفر والعصيان ، وقد تنوعت المواقف فى هذا اليوم تبعاً لتنوع أعمال البشر منذ أبينا آدم ـ عليه السلام ـ وإلى قيام الساعة ، ومن هذه المواقف ما حكاه لنا القرآن فى الحوار بين الضالين والمضلين[١] أو بين المستكبرين والمستضعفين ، ومنها أيضاً الجمع بين العابدين والمعبودين فى مقام واحد ، وذلك لاقامة الحجة على العابدين ، وذلك ببطلان عبادتهم لغير الله تعالى وبذلك يحق عليهم العذاب ، يقول تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ»[٢] .

فالقرآن يحكى ماسوف يكون فى يوم القيامة بعد إحضار العابدين والمعبودين وكما هو واضح من السياق أن الله تعالى جمع بين الملائكة الذين عُبدوا من دون الله وبين مَنْ عبدوهم ، ثم خاطب الله تعالى الملائكة بقوله مستفهماً « أهؤلاء إياكم يعبدون » فجاء الجواب بتنزيه الملائكة لله تعالى والاقرار له بالولاية وتحديد نوع المعبود الذى كان يعبده هؤلاء وهو الجن ، فجاء عقب ذلك قوله تعالى « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » .

فإلفاء هنا عاطفة لترتيب مابعدها على جواب الملائكة [٣] وبعد جواب الملائكة لله تعالى لم يعد فى نفوس العابدين مثقال ذرة من التعلق بهم فقد أقيمت عليهم الحجة وحق عليهم عقاب الله وعذابه ، يقول البقاعى « ولما بطلت

---

(١) أنظر سبأ : ٣١ ـ ٣٣ .

(٢) سبأ : ٤٠ ـ ٤٢ .

(٣) انظر روح المعانى ٢٢/٢٢٢ وانظر التحرير والتنوير ٢٢/٢٢٣ .

تمسكاتهم وتقطعت تعلقاتهم تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عنه تنديمهم بقوله بلسان العظمة « فاليوم » [١] ، وكما هو واضح أن الظرف وهو « اليوم » قدم على الفعل « يملك » لأن النفع والضر فى هذا اليوم مختصان بالله تعالى وحده [٢] والتقدير لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً اليوم ، فاليوم حدد الزمن الذى ينتفى فيه ملك النفع والضر ، أو أن تقديم اليوم لعظم شأنه وأهميته ، فإذا كان هناك فى الدنيا من يدعى ملك النفع والضر كما اعتقدتم أن الملائكة التى عبدتموها هى التى تنفعكم فى الدنيا وأنها سوف تنفعكم فى الآخرة بالشافعة وغيرها . فإن هذا اليوم النافع والضار فيه هو الله تعالى تأييساً لهم . ولا نستطيع تخيل الحالة التى هم فيها حين يرجعون بالذاكرة إلى الدنيا والتى ضيعوها فى عبادة غير الله .

ولم يقل (فاليوم لاينفعوكم أو يضروكم) وإنما نفى الملك فى قوله « لايملك » فنفى الملك وأراد نفى القدرة ونفى تقديم أى نفع ودفع أى ضر ، والتعبير بالمضارع للدلالة على أنهم لايملكون شيئاً فى أى موقف من مواقف القيامة ولابعد استقرار أهل الجنة فى الجنة واستقرار أهل النار فى النار .

وأسند القرآن الملك المنفى إلى « بعضكم » وقوله « لبعض » متعلق بالفعل يملك ؛ لأنهم طوائف ، طائفة العابدين وطائفة الملائكة وطائفة الجن ؛ وليس المقام مقام تكريما للعابدين إنما هو مقام توبيخ على عبادتهم من لا يستحق أن يعبد أو كما قال الألوسى « ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٢٤ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٢٤ .

فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم » [١] .

والملك المنفى المسند إلى بعضكم قد وقع على نفعاً ؛ لأن عبادتهم للملائكة قد تعلقت بالحصول على النفع سواء كان دنيوياً أو آخرويا وتمثل النفع الأخروى فى شفاعة الملائكة لهم لاعتقادهم درجة قرب الملائكة من الله تعالى ، وهذا من الأمور التى لبسها عليهم إبليس لإفساد عقيدتهم كما لبس على عباد الوثن ، وكيف بعاقل يتجه إلى عبادة الشافع ويترك عبادة المشفع عنده ، فالله تعالى لم يغلق أبوابه أمام كل من يريد أن يلجها حتى يحتاج إلى شفيع .

فالغرض هنا نفى وقوع النفع من المعبودين والذى تعلقت به نفوس العابدين . ونكر كلمة (نفعا) للدلالة على العموم أى لا يملكون اى نوع من أنواع النفع .

فذكر النفع كما قيل « مفيد للحسرة » ، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك ؟ فنقول : لما كانت العبادة تقع لرفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لأجله عبادتهم » [٢] وأيضاً تنكير كلمة « ضراً » للدلالة على عموم الضر أى لايقع منهم أى نوع من أنواع الضر .

وقدم النفع هنا على الضر ؛ لأن الغرض من عبادة الكفار الملائكة الخلاص من العذاب بالشفاعة[٣] .

وبعد أن تقطعت الأسباب التى تعلقت بها نفوس العابدين وتذكروا ما كان منهم فى الدنيا وأصيبوا بالندم والحسرة التى لا تدانيها حسرة ، لأنهم فقدوا

---

(١) روح المعانى ١٢/ ٢٢٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦٧/٢٥ وانظر روح المعانى ٢٢/ ٢٢٢ ــ ٢٢٣ .

(٣) انظر نظم الدرر ١٥ / ٥٢٢ .

الخلود فى النعيم وليس أمامهم إلا الجحيم الذى كذبوا به أنبياء الله ورسله ، والذى لو ملك واحد منهم ملء ما فى الأرض ذهباً ومثله معه لافتدى به ، ويرتب على هذا توبيخ الله لهم بقوله : « ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » .

فأسند القول إليه وعبر عن ذلك بالضمير الدال على التعظيم (نحن) لأن هذا موقف من المواقف التى لا يختص بها سواه فالواو فى « ونقول » عاطفة والمعطوف عليه جملة «لايملك » .

وعبر القرآن عن المقول لهم هذا القول بالظالمين ، وذلك للدلالة على عدل الله لهم ، لأنه تعالى حين يقول لهم هذا القول فليس عن ظلم كما يكون من بعض أهل الدنيا وإنما هذا بسبب ظلمهم لأنفسهم حيث جعلوا لله تعالى شركاء فاسند الظلم إلى الضمير العائد إلى الكافرين ؛ ولأن الملائكة أو الجن لم تطلب منهم عبادتهم ، إنما هم الذين عبدوهم بناءً على تزيين الشيطان لهم ذلك كما قال الله « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين »[1] ومقول القول وقع فى محل نصب مفعول به وهو قوله تعالى « ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون» .

ويقال لهم ذلك بعد الحساب وهم يرون النار ويدركون حقيقة العذاب الذى عبر عنه بالذوق على جهة الاستعارة ؛ لأن الذوق فى الحقيقة يكون لادراك الطعوم بطرف اللسان حيث شبه القرآن شدة احساسهم بألم العذاب بإدراك طرف اللسان لأنواع الطعوم المختلفة والعلاقة بينهما إدراك حقيقة الشئ كما هو ، وأوقع الذوق المسند إلى الضمير العائد إليهم على العذاب المضاف إلى النار التى كانوا بها يكذبون فى الدنيا حيث قالوا كما حكى عنهم القرآن فى بداية هذه

---

(١) سبأ : ٢٠ .

السورة « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » (١) .

ولعل الغرض من هذا البيان القرآنى وغيره تحذير العابدين لغير الله فى الدنيا بالكف عن التمادى فى الباطل والضلال حيث إن القرآن يقرع آذانهم كل وقت وحين وهم يصمون آذانهم عن الاستجابة لدعوته .

ويمكن أن يقال : جاء فى ختام هذه الآية « ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » حيث جاء الموصول وصفاً للمضاف إليه ، وأما فى سورة السجدة فقال « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » (٢) حيث جاء الموصول وصفاً للمضاف وهم كانوا يكذبون بالكل فما هو السر فى ذلك ؟

وفى الجواب عن ذلك أن هذه الآية وهى آية سبأ أن القرآن وصف لهم ما أبصروه وشاهدوه وهو النار ، لأنه قد ذكر عقب الحشر ، وأما آية السجدة أنهم لم يكن أول مارأوا النار بل كانوا فيها يذوقون العذاب منذ زمن طويل بدليل قوله تعالى « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » (٣) .

---

(١) سبأ : ٧ .

(٢) السجدة : ٢٠ .

(٣) انظر مفاتيح الغيب ٢٥/ ٢٦٧ ، وحاشية الشهاب ٧/٥٥٦ وروح المعانى ٢٢/ ٢٢٣ .

كشف كذب المنافقين وحيلهم

الإيمان بالله تعالى والثقة فيه ليس على درجة واحدة ؛ لأن من الناس مَنْ تمكن الإيمان من قلبه ، ومنهم من لم يخالط هذا الإيمان قلبه وبناءً على هذا فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية ليعتمر دعا الأعراب وأهل البوادى الذين كانوا حول المدينة للخروج معه خوفاً من تعرض قريش له بحربٍ أو صدٍ عن البيت الحرام فبايعه وسار معه من أنعم الله تعالى عليهم بكمال الإيمان لم يخافوا الموت ، وقدموا أنفسهم وأموالهم تلبية لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخذ له وتناقل عنه الكثير من الأعراب قائلين : يذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه سوف يهلك هو ومن معه ولا يعود إلى المدينة مرة أخرى ، وتعللوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم [1] ، وحكى القرآن ذلك فى قوله تعالى : « إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهو عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ، سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم خيراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً » [2] .

وحينما علم هؤلاء أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يصبه هو وأصحابه أدنى أذى فكروا فى حيلة يواجهونه بها لتكون سبباً فى دفع اللوم عن أنفسهم ، فقوله تبارك وتعالى « سيقول » « اخبار من الله سبحانه وتعالى بما سيلقاه به الذين تخلفوا من الأعراب عن دعوة الرسول لهم فى السير معه إلى

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٥٤٣ ، ومفاتيح الغيب ٨٩/٢٨ .

(٢) الفتح : ١٠ ـ ١١ .

مكة لزيارة البيت الحرام ... وقد تقاعس هؤلاء الأعراب .. بأعذار شتى » [١] ، وليس هذا آخر ما قيل ، إنما سيقال عن أى دعوة لنصرة دين الله فى أى زمن إن لم يطهروا قلوبهم مما فيها من نفاق .

وعبر القرآن عن المسند إليه بالمخلفين تحقيراً لهم فالمخلف « هو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف ضد المقدم » [٢] وكما قال البقاعى « وحقر أمرهم بسلب العقل عنهم وجعلهم مفعولين لا فاعلين إشارة إلى أنهم طردوا عن هذا المقام لأنهم أشرار لئام ... فجعلهم كالشئ التافه الذى يخلفه الإنسان ؛ لأنه لافائدة فيه فلا يؤبه له ولا يعبأ به » [٣] .

ولعل السر فى التعبير بقوله (لك) دفع توهم أن يكونوا قد اعتذروا لغيره ، وأن «لطف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشدة رحمته ورفقه وشفقته فقال « لك » أى لأنهم يطمون أنك ألطف الخلق عشرةً وأعظمهم شفقة على عباد الله فهم يطمعون فى قبولك من فاسد عذرهم مالا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين ، وغاب عنهم ... أن الكذب بحضرتك فى غاية القباحة لأنك أعظم الخلق وأفطنهم مع ما يأتيك من علام الغيوب » [٤] .

وقوله « من الأعراب » مخرج من عداهم ممن تخلفوا بعذر قهريّ ومقول القول «شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » وقع فى محل نصب مفعول به ، وقد تضمن هذا أمرين: الأول : الاعتذار عن التخلف . الثانى : طلب الاستغفار وهم فى هذا الاعتذار لم يعبروا بالمنع بدلاً من الشغل فلم يقولوا منعتنا أموالنا وأهلونا . وإنما عبروا بالشغل ؛ لأن الشغل يدل على خلاف الفراغ [٥] أو هو أيضاً «

---

(١) التفسير القرآنى ٤٠٨/٧ .
(٢) روح المعانى ١٤٩/٢٦ .
(٣) نظم الدرر ٢٩٩/١٨ ـ ٣٠٠ .
(٤) نظم الدرر ٢٩٩/١٨ وانظر ملاك التأويل ٢/ ٤٤٥ .
(٥) انظر معجم مقاييس اللغة (شغل) ص /٥٢٩ .

العارض الذى يذهل الإنسان » [١] وإسنادهم الشغل إلى الأموال « لأن بها قوام العيش وعطفوا الأهل ؛ لأنهم كانوا يحافظون على الأهل أكثر من حفظ المال » [٢] ويمكن أن يقال : إن حفظ الأهل عند ذوى الغيرة أهم من حفظ المال فكيف قدم ؟ والسر فى هذا كما قال الألوسى « ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقى ؛ لأن حفظ الأهل عند ذوى الغيرة أهم من حفظ المال » [٣] .

ولو أسندوا الشغل إلى الأموال والأهلون فقط دون ذكر لضمير المفعول به لـ كان المراد أنهم قد شغلوا بحفظ أموال وأهل من ليسوا مطالبين بحفظه .

ومثل هذا الاعتذار باعتبار الظاهر يعد مقبولاً إذا كانت الأموال والأهل فى الحقيقة والواقع قد حالت دونهم ودون الخروج ، ولنفترض صحة العذر ، لايجوز لمسلم التخلف عن دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل هذا الوقت وفى مثل هذه الظروف ، فقد يؤدى التخلف فى مثل هذه الأوقات إلى أضرار عظيمة بالرسول والاسلام ؛ ولأن الأموال والأولاد والأهل مما رزقهم الله فلو هلكت لعوضهم الله عنها .

وهؤلاء وإن كانوا كاذبين فى اعتذارهم فهم يدركون فى قرارة أنفسهم أن مافعلوه من الاعتذار عن الخروج يعد ذنباً يستحقون عليه العقاب فقدموا بين يدى طلب المغفرة عذراً عله يكون مقبولاً [٤] واعتقدوا أن استغفار النبى لهم سيكون سبباً فى محو هذا الذنب الذى أضمروه فى قلوبهم وغاب عنهم احاطة علم الله بهم [٥] .

---

(١) المفردات للراغب (شغل) ص /

(٢) نظم الدرر ٣٠٠/١٨ وانظر البحر المحيط ٩٣/٨ .

(٣) روح المعانى ١٤٩/٢٦ .

(٤) انظر مفاتيح الغيب ٨٩/٢٨ والبحر المحيط ٩٣/٨ .

(٥) انظر التحرير والتنوير ١٦٢/٢٦ .

فالفاء فى قوله « فاستغفر لنا » عاطفة لربط المسبب بالسبب [١] .

وربما كان طلب الاستغفار يغتر به من لا خبرة له ، فكذبهم الله تعالى فى اعتذارهم ، وأن ما خلفهم ليس مايقولون وإنما هو الشك فى الله والنفاق [٢] فقال « يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » فهذا كما قال الشهاب كناية عن كذبهم : « قوله (تكذيب لهم فى الاعتذار والاستغفار) يعنى أن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما فى الجنان كناية عن كذبهم ، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه كان لضرورة داعية له وهى القيام بمصالحهم التى لابد منها وعدم من يقوم بها لو خرجوا معه .

وأما تكذيبهم فى الاستغفار وهوأمر وانشاء لا يحتمل الصدق والكذب فباعتبار ما تضمنه من اعترافهم وإيمانهم بأنهم مذنبون وأن دعاءه لهم يفيدهم » [٣] .

وبعد هذا خبثاً ومكراً منهم فقد أظهروا أنهم مؤمنون عاصون وهم فى ذلك كاذبون ؛ لأن طلبهم الاستغفار كان مصاحبة من غير توبة ولاندم [٤] .

فهم قد ظنوا أن مافطوه سيدفع المكروه عن أنفسهم وسيجلب لهم الأمور المحببة إليهم ، ولذلك أمر الله تبارك وتعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرد عليهم بقوله تعالى [٥] قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم خيراً أو أراد بكم نفعاً » فنقل استئناف للجواب ، والفاء قيل إنها عاطفة على جملة محذوفة تضمنت كذبهم فى مقالتهم وتقدير الكلام قل كذبوا ، أو قل ليس الأمر كما

---

(١) انظر نظم الدرر ١٨/٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٥٣ بتصرف .

(٣) حاشية الشهاب ٨/٥٢٢ وانظر روح المعانى ٢٦/١٤٩ والتفسير القرآنى ٧/٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٤) انظر البحر المحيط ٨/٩٣ .

(٥) انظر نظم الدرر ١٨/٣٠١ وحاشية زاده ٤/ ٣٥٧ .

قالوا [١] أو أنها رابطة لجواب شرط مقدر هو إن أراد الله إهلاككم فمن يملك [٢] والاستفهام انكارى أى لا أحد يملك لكم من الله شيئاً .

وفى الآية كما قال الاسكندرى لف ونشر : « لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف وكان الأصل والله أعلم فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً ؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل فى الضر... وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام ودفع المضره يضاف للمدفوع عنه وليس كذلك حرمان المنفعة فإن ضرر عائد عليه لاله » [٣] .

وفسر الملك هنا بمعنى المنع [٤] والتعبير بالمضارع يدل على عدم وجود من يدفع الضر عنهم أو يجلب النفع لهم فى أى وقت من الأوقات إن أراد الله تعالى الحاقه بهم .

وعبر القرآن بـ (لكم) لأن السياق عنهم خاصة دون غيرهم ، وضح هذا وبينه الاسكافى عند بيانه لذكر (لكم) فى الفتح وعدم ذكرها فى المائدة [٥]، فقال « للسائل أن يسأل عن زيادة لكم فى قوله » فمن يملك لكم فى هذه السورة وحذفها فى سورة المائدة والجواب أن يقال : إن هذه الآية فى قولم تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد معه والغزو وقالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا ثم سألوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستغفر لهم يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وأنهم محتاجون إلى استغفاره لهم وقصد استمالته وأن لاتضرهم عداوته ثم قال « قل فمن يملك لكم من الله

---

(١) انظر البحر المحيط ٨ / ٩٣

(٢) انظر الجدول ٢٤٩/٣٦ .

(٣) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف ٣/ ٥٤٤ وانظر حاشية الشهاب ٥٢٢/٨ .

(٤) انظر حاشية الشهاب ٥٢٢/٨ .

(٥) المائدة : ١٧ .

شيئاً » أى من يملك لكم نفعاً إن أراد لكم ضراً ومن يملك لكم ضراً إن أراد بكم نفعاً؟ ومعناه إن أراد انزال العذاب بكم لم يكن لكم من يدفع عنكم كما أنه إن أراد الإنعام عليكم لم تضركم إساءة المسئ إليكم فلما كان فى قوم مخصوصين احتج إلى قوله (لكم) ليتبين » [١] .

وقوله « من الله » متعلق بـ « يملك » والغرض من ذكر هذا المتعلق الدلالة على أن الضر والنفع يكون منه وليس من غيره ، فلا التخلف عن الجهاد يحجب عنهم الضر إن أراده الله لهم وليس الذهاب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكون سبباً فى نزول الضر بهم فقد يقاتل الرجل ويرجع منتصراً دون أن يصاب وقد يجلس فى بيته وينزل به الضر ، ويجوز أيضاً أن يكون المراد لم يأخذ احد من الله عهداً وميثاقاً أن تخلفكم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيكون سبباً فى دفع الضر عنكم ، ولم يأخذ أحد عهداً وميثاقاً أن تخلفكم سيكون سبباً فى حصول النفع لكم ، فكل ما يتعلق بالإنسان من دفع الضر وجلب الخير لا يملكه إلا الله الذى تخاذلوا عن نصرة دينه وعدم تلبيهم لدعوة رسوله وفعلاً مثل هذا يستوجب منهم تصحيح عقيدتهم والرجوع إلى ربهم ؛ لأن التمسك به يكون سبباً فى عقاب الله لهم لأنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء فمن جهل الجاهل وغباء الغبى الاعتقاد بأن ما يضمره فى لقبه مما لا يطلع عليه الناس مغيب عن الله ولذلك أضرب عما قالوه بـ (بل) فى قوله تعالى » بل كان الله بما تعملون خبيراً » كما قال الشهاب قوله ، بل كان الله بما تعملون خبيرا « فإنه اضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد بيان فساده»[٢] .

والتعبير بالماضى يدل على احاطة علم الله بهم قبل خلقهم أى يعلم أن هؤلاء سوف يقع منهم هذا . فالخبير العالم بأخبار الأعمال أو هو العالم ببواطن

---

(١) درة التنزيل وثمرة التأويل ص / ٣١٧ .

(٢) حاشية الشهاب ٨/٥٢٢ .

الأمور[١] وإذا كان يعلم هذا اذلاً فلا يخفى عليه حين يقع ، وفى هذا تهديد ووعيد بالعقاب إن لم تكن هناك نية للرجوع عنه ، أى أنه كناية عن المجازاة [٢] ، والتعبير بالمضارع فى قوله « تعملون » يدل على أن ما صدر وما سيصدر منهم من عمل قد احاط الله به علماً فلم الكذب ولم النفاق ؟ .

---

(١) انظر المفردات (خبر) / ٢٠٤ .

(٢) انظر روح المعانى ١٥٠/٢٦ .

الخاتمـــــــة

الحمد لله الذى خلق فسوى وقدر فهدى ، الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه واتباعه ومن سلك هديه إلى يوم الدين وبعد ...

فقد عشت مع آيات الضر والنفع فى القرآن الكريم فترة من الزمن ليست باليسيرة محاولاً إبراز الأسرار البلاغية لهذه الآيات ، وبيان مدى مطابقتها للسياق والمقام الواردة فيه وأود أن أشير إلى أهم النتائج على النحو الآتى :

أن الإنسان بفطرته عند شعوره واحساسه بوجوده فى الحياة تتعلق نفسه بمن يجلب له النفع ويدفع عنه الضر بحكم أنه مخلوق ومحتاج ، وحاجة من عاش لا تنقضى ، وهو إما أن يعمل عقله وفكره ليدرك من يغدق عليه هذه المنافع وغيرها ويدفع عنه المضار فيصل إلى أن له رباً خالقاً قادراً رازقاً هادياً فيتجه إلهي بالعبادة راجياً رحمته وخائفاً عذابه ، هذا نوع من البشر وهناك نوع آخر لا يعمل عقله وفكر ليصل إلى الحقيقة وإنما يُسلم نفسه وفكره وعقله وقلبه لهواها ولغيره فتتشعب أمامه السبل ويضل الطريق فيسند الضر والنفع إلى غير موجدهما أى : إلى من يتخذه رباً وإلهاً غير الله تعالى ، ولذا أراد القرآن كشف وجه الحقيقة فنفى عن عيسى ــ عليه السلام ــ وعن الأصنام ... ملك النفع والضر لهؤلاء الذين تركوا عبادة الله واتجهوا إلى عبادة هذه المخلوقات .

أن هذا البحث أماط اللثام عن بحثين آخرين يمكن القيام بهما وهما آيات الضر فى القرآن الكريم دراسة بلاغية وكذا آيات النفع بحيث يفرد كل منهما بالبحث والدراسة .

دقة التعبير القرآن فى البيان عن الأغراض التى لم ينقطع العمل بها كما جاء فى التعبير بالمضارع فى آية السحر فى قوله : « فيتعلمون منهما ما يفرقون » ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » مما زالت طائفة من الناس تتعلم

السحر بقصد ايذاء الناس بالتفريق ومازالوا مصرين على تعلم من يدركون أنه ضار لهم قليس نافعاً .

وأيضاً فى آية المائدة فى إنكار القرآن على النصارى الاصرار على عبادة المسيح فى قوله « أتعبدون » ونفى ملك الضر والنفع عن المسيح فى « مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » وفى آية الأنعام « أندعو » « ونرد » مالا ينفعنا ولا يضرنا «يدعونه إلى الهدى » وفى الأعراف ويونس فى « لا أملك لنفسى » ... الخ ماهو مذكور فى ثنايا البحث « ويعبدون ــ مالايضرهم ــ ولا ينفعهم » .

فى آية السحر لم يرد اسلوب الأمر بــ « قل » كما ورد فى آية المائدة لأن السياق والمقام لحكاية جريمة من الجرائم القديمة الجديدة التى تصاحب اليهود ، وإنما ورد أسلوب الأمر بــ « قل » فى المائدة وفى الأنعام وفى الأعراف وفى يونس آية [٥٥] وفى الرعد وفى الفتح لأنها فى الرد على هؤلاء العابدين وتصحيح الأخطاء وتقرير الحقائق وأما أسلوب النهى فلم يرد فى هذه الآيات إلا مرة واحدة فى آية يونس [١٠٦] فى قوله تعالى « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك» وذلك لبيان عظم الشرك بالله تعالى ، ومرة واحدة فى آية السحر فى قوله « فلا تكفر » ، وأما أسلوب الاستفهام فتكرر فى المائدة والأنعام والرعد وطه والأنبياء والشعراء والفتح وهو فى كل ذلك لم يرد على حقيقته ، لأن المقامات إما إنكار على فعل منكر وإما لتقرير حقيقة مهمة ؛ لأنه فى مقام تصحيح عقيدة هؤلاء الذين يسندون مالله إلى غيره .

أن البحوث المتصلة بالقرآن الكريم فيما يتعلق بالدراسة البلاغية التطبيقية فى حاجة إلى توقى الحذر ، فالوقوع فى أى خطأ يعد تقولاً على الله بما لم يرد أن يقوله .

التعبير عن المسيح ــ عليه السلام ــ وعن الأصنام بــ (ما) التى لغير العاقل ؛ لأن المقام لتقرير حقائق ثابتة فى الواقع لكنها فى نفوس المخاطبين غير

ثابتة وذلك التقرير نفى ملك المسيح والأصنام وغير ذلك مما يعبد من دون الله النفع والضر للعابدين لأنها جمادات وأن ما ملكه المسيح كان من تمكين الله له .

وأن ما ينفعهم به الله وما ينزل بهم من ضر قد قدره الله لهم يسندوه إلى هذه المعبودات فقد لبس عليهم إبليس ذلك .

أن أسلوب الاستعارة جئ به لبيان صورة المرتد بصورة قبيحة مذمومة فى « أترد على أعقابنا » وفى تقبيح صورة من يعلم إيمانه بالحصول على المكاسب الدنيوية فى قوله « على حرف » « انقلب على وجهه » وفى بيان الفرق بين المؤمن والكافر والإيمان والكفر .

جاء تقديم الضر على النفع والعكس لأسرار بلاغية اقتضاها السياق وتطلبها المقام

أن الضر والنفع وقع فى النظم القرآنى مفعولاً به مرة وصلة للموصول أخرى وفى محل خفض ثالثة .

بيان كذب اليهود فى نسبة السحر إلى بنى الله سليمان ـ عليه السلام ـ وكذب النصارى فى نسبة الشريك إلى الله تعالى حيث ادعوا أن المسيح ابن الله .

أن حروف الربط لم ترد إلا الواو ، بكثرة وهى إما للعطف أو للاستئناف ولم ترد ثم وجاءت (أم) .

أن التشبيه جئ به فى بيان القرآن عن صورة المرتد فى الأنعام وصور ذلك بصورة وهيئة الذى استهوته الشياطين وجاء أيضاً فى الرعد منفياً بالاستفهام الانكارى وهذا المنفى لا يسمى تشبيهاً ، لأن التشبيه المنفى فيه المشبه لا ينعقد تشبيهاً ولا تشابهاً .

تنوع التعبير عن الإيمان مرة بالعبادة واخرى بالدعاء .

ارتباط النظم والسياق فى هذه الآيات ببيان وجوه فساد عقيدة أهل الشرك .

إلى غير ذلك مما هو مثبوت فى ثنايا البحث ...

والله أسأل أن ينفعنا بهذا من فضله وجوده إنه سميع قريب مجيب ...

الباحث ...

فهرست المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط مكتبة التراث القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم [المشهور بتفسير أبى السعود] للقاضى محمد بن محمد بن مصطفى العماوى الحنفى المتوفى سنه ٩٨٢هـ ط دار الفكر بيروت لبنان الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١] .
- البيان لـ « عبد الحميد عبده خليل وصادق إبراهيم خطاب والسعادة مصر ١٩٦٢م .
- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى ٦٥٤ هـ ـ ٧٥٤ الثانية ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢ الناشر دار الكتاب الإسلامى القاهرة .
- تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى نفع الله به المسلمين ، قدم له فضيلة الشيخ خليل محيى الدين الميسى ط دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .
- تفسير التحرير والتنوير لسماحة الاستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ط دار شحتوت تونس .
- التفسير القرآنى للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى بمصر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م .
- جامع البيان فى تأويل القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ١٣١٧ هـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .
- الجدول فى إعراب القرآن وصرفه وبيانه تصنيف محمود صافى ط دار الرشيد ـ دمشق وبيروت ط الأولى ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

•حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى للقضى شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩هـ ضبط وخرج آياته وأحاديثه الشيخ / عبد الرزاق المهدى ط الأولى دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

•حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير القاضى البيضاوى ط المكتبة الإسلامية ـ محمد ازدمير ـ ديار بكر تركيا ١٨٨٣م .

•درة التنزيل وغرّة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز لابى عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافى المتوفى سنة ٤٢٠هـ المكتبة التوفيقية مصر بدون تاريخ .

•الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون تأليف الإمام شهاب الدين أبى العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى تحقيق وتعليق الشيخ / على محمد معوض ـ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود . د/ زكريا عبد المجيد النوتى ـ د . جاد مخلوف جاد ، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

•روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى ١٠٢٧هـ دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

•شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان .

•الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لـ محمود بن عمر الزمخشرى ط مصطفى البابى الحلبى بمصر الأخيرة ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م .

•لسان العرب لابن منظور تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد احمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى ط دار المعارف بمصر بدون تاريخ .

•معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصبهانى أعده للنشر واشرف على الطبع د/ محمد أحمد خلف الله نشر مكتبة الانجلو مصر ١٩٧٠ .

•معجم المقاييس فى اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٥ حققه شهاب الدين أبو عمرو ط دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

•ملاك التأويل القاطع بذوى الالحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من آى التنزيل ، تأليف الأمام أبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨هـ وض حواشيه عبد الغنى محمد على الفاسى ط دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الأولى ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م .

•نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام المفسر برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن تمحر البقاعى المتوفى ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م ط الأولى ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م دائرة المعارف العثمانية .

فهرست الموضوعات

ـ المقدمة	أ- ب
ـ بيان القرآن عن جريمة من جرائم اليهود	١-٢٦
ـ الرد على النصارى ببيان فساد اعقيدتهم	٢٧-٣٤
ـ شدة تمسك أهل الضلال به	٣٥-٤٧
ـ استئثار الله بعلم الغيب	٤٨-٦٠
ـ نفى شفاعة الاصنام	٦١-٦٨
ـ انتفاء الألوهية عن الأصنام	٦٩-٧٤
ـ عظم الشرك	٧٤-٧٨
ـ تفرد الله بالوحدانية والربونية	٧٩-٨٩
ـ إقامة سيدنا إبراهيم الحجة على قومه	٩٠-٩٨
ـ ربط الإيمان بالمكاتب الدنيوية	٩٩-١٠٧
ـ بيان القرآن لمشهد من مشاهد يوم القيامة	١٠٨-١١٢
ـ كشف كذب المنافقين وحيلهم	١١٣-١١٩
ـ الخاتمة	١٢٠-١٢٣
ـ فهرست المصادر والمراجع	١٢٤-١٢٦
ـ فهرست الموضوعات	١٢٧